شخصيات من القرآن الكريم

د. عائض بن عبدالله القرني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد ، الصمد ؛ الذي لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفوا أحـــد ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير ؛ البشير النذير ، والسراج المنير ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ؛ أما بعد.

فانه في خضم أزمات الحياة المادية ، يجب على المسلم أن يخلو بربه تعالى ، ويتمتع بلذة مناجاته ، والتشرف بالخلوة به ، والتنعم بتدبر رسالته الخالدة ؛ التي أنزلها لتكـــون نبراســـاً للعالمين ، القران الكريم ، وكان من جملة اهتماماتي بهذه الرسالة الخالدة ، أن يسر الله تعالى في كتابه بعض الكلمات عن بعض الشخصيات التي ورد ذكرها في القران الكريم ، فكانت هذه الرسالة ((شخصيات من القران الكريم)) سائلا الله تعالى أن يتقبلها مني ، وان ينفـــع بهـــا المسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

،،

كتب

د. عائض بن عبد الله القرني

هذه قصة أبينا آدم ، عليه السلام ، قصة الخلق وسجود الملائكة له ، وقصة الخطيئة ، ونحن مثله أو أكثر ، ومن شابه أباه فما ظلم ،وتلك شنشنة نعرفها من أحزم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}(البقرة:34)

هنا قضايا هائلة وأحداث عالمية ؛ عاشها آدم ، عليه السلام ، وسمعها الأنبياء والرسل والملأ الأعلى .

أولها : يقول سبحانه وتعالى : ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ)) أي : كلفنا وأمرنا وتعبدنا الملائكة أن يسجدوا لآدم .

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} وفي هذه الكلمة قضايا :

أولها : ما هو هذا السجود الذي يريده ، سبحانه وتعالى ، من الملائكة ؟ وهل يصرف السجود لغير الله ؟

في الحديث : أن معاذاً أتى من الشام قال : يا رسول الله ، رأيت العجم يسجدون لملوكهم وأنت أولى أن نسجد لك .

قال صلى الله عليه وسلم ((لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليه ولكن لا يكون إلا لله)) [1].

فلا يسجد إلا لله ، وهذه السجدة هي سجدة التشريف ، ويوم تضع جبينك في الأرض على التراب يرفعك الله درجات ، ففي حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة))[2] ، وعن ربيعة الاسلمي قال: قلت يا رسول الله، أريد مرافقتك في الجنة ، فقال : ((فأعني على نفسك بكثرة السجود))[3] .

كلما سجدت كلما رفعك الله ، وكلما تحررت من العبادة لغير الله ، من عبادة الوظائف والطواغيت ، والمناصب ، والدراهم والدنانير ، ارتعت في مقامات العبودية .

---

[1] صحيح .
أخرجه احمد (18913) ، وابن ماجه (1853) عن عبد الله بن أبي أوف رضي الله عنه ، وانظر : ((المشكاة))(3255).

[2] أخرجه مسلم (488).

[3] أخرجه مسلم (489).

فهل هذا السجود الذي أمر الله به الملائكة لآدم السجود على الأرض مثل ما نسجد للصلاة ؟

لأهل العلم رأيان أو قولان :

يقول الأول : معناه : الانحناء والخضوع ، وهو : أن يهدهد رأسه وان يخضع .

والقول الثاني : معناه : أن يسجد للأرض فالسجود لله ، ولكن تكريما لآدم ، وإجابة لأمر الله سبحانه وتعالى .

والرأي الثاني هو الصحيح ، وكان في شرع من قبلنا السجود للإكرام ، قال ، سبحانه وتعالى ، في قصة يوسف : {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً } (يوسف: من الآية 100) أما عندنا في شريعتنا فلا يسجد إلا لله ، ولا يسجد لعظيم مهما كان ،ولا ينحني له ، فان الانحناء محرم.

وفي هذا : قضايا أثارها ابن تيمية وابن القيم ،وغيرهما ، هل الملائكة أفضل أو بني ادم أفضل ؟

قال بعضهم : الملائكة أفضل ؛ لأنهم اقرب إلى الله ، ولان الله رفع أمكنتهم ، ولان الله ما جعل عندهم شهوات ، فأنهم عقول بلا شهوات ، وابن آدم شهوة وعقل ، والحيوان شهوة بلا عقل .

ومنها : أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وكل ما في السماء من ملك ، كلهم سجود إلى قيام الساعة ، وهناك ملائكة لهم اختصاصات عجيبة ومجال التوسع في بسط الكلام عنها يكون في موضوع الحديث عن الملائكة.

واستدلوا بأدلة : منها: أنهم يستغفرون لمن في الأرض ، والفضل يستغفر للمفضول ، ليس المفضول يستغفر للفاضل .

وقال قوم : بل بنو آدم أفضل ؛ لأنهم ركبت فيهم الشهوة ، وصارعوا الشهوات ، يعني : الصالحين ، أما الكفرة فلا يوازنون بالحمير ولا بالخنازير ولا بالكلاب { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} (الفرقان: من الآية 44) .

والصالحون كما يقول بن تيمية : العبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات .

فأما في الدنيا فالملائكة أفضل ؛ لأنها اقرب إلى الله ، ولأنهم لا يذنبون ولا يخطئون ولا يعصون الله ،وأما في الأرض فإذا قرب الله بني آدم ودخلوا الجنة — نسأل الله مـــن فـــضله ، أصبحوا أفضل من الملائكة.

بالله لفظك هذا سال من عسل *** أم قد صببت على أفواهنا العسل

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسجدوا}

أولا : خلق الله آدم من طين لازب ، ما حمأ مسنون ،قالوا : من فخـــار ، والطـــين اللازب ، هو : الطينة اللزجة كالغراء ، فلما خلقه الله تركه أربعين يوما طينا ، تدخل الرياح من فمه وتخرج من دبره ، انظر إلى الخلق الضعيف ، وانظر إلى أصل النـــشأة ، وانظـــر إلى الناس جميعا ؛ ملوكا ومملوكين ، ورؤساء ومرؤوسين ، وأغنياء وفقراء ، كلهم من هذا الطين ، ثم انظر إلى المتكبرين المتجبرين في الأرض .

الذي ما ينظر بعين البصيرة ، إنما ينظر بعين البصر يتيه تيهانا ، ويهيج هيجانا ، ويمشي وكأنه ليس من ذاك الأصل .

أحد وزراء بني أمية وزير متكبر متجبر ، عنده بغال ، وعنده خيول وسيوف ، وعنده حشم ، مر والحسن البصري جالس ، فقام له الناس إلا الحسن البصري .

فالتفت الوزير قال : ما عرفتني ؟

قال الحسن البصري لما عرفتك ما قمت .

قال : من أنا ؟

قال : أنت الذي خرج من مخرج البول مرتين ،أن تتحمل العذرة ، و أصلك تعاد إلى جيفة قذرة ، وأتيت من نطفة مذرة ، فسكت ، فكأنما أغشي على وجهه النار .

دخل المهدي العباس مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقام الناس له جميعا ، إلا ابن أبي ذئب المحدث الكبير ما قام ، جلس فسلم على الحضور ، ثم التفت إلى ابن ذئب قال : ما لك لا تقوم لنا وقد قام لنا الناس ؟ قال : أردت إن أقوم لك فتذكرت قوله تعـــالى : {يَـــوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (المطففين : 6) فتركت القيام لذلك اليوم ، قال : اجلـــس ، والله ، لقد أقمت كل شعرة من رأسي .

عن طاووس بن كيسان العالم الثقة الزاهد العابد المحدث تلمي ابن عباس قال : دخلت الحرم فطفت ، ثم صليت ركعتين عند المقام ، ثم جلست انظر في الناس أتفكر في هذه الخليقة ، وهي ، والله ،عبرة من العبر ، انظر إلى المطارات إذا كنت في انتظار أو مغادرة ، وانظر إلى الصالات والمستشفيات ، اختلاف الصور ، اختلاف الأبـــدان ، اللمحـــات ، النظـــرات ، السمات ، كل واحد من الناس عالم مستقل في نفسه ، هموم وغموم وأحزان وأقطار ، شقي وسعيد ، فقير وغني ، سالم من الهموم ، ومتورط في المدلهمات ، فسبحان الباري .

ومع ذلك ، فالله يراقب كل حركة من الناس ، كل يوم هو في شأن ، ما تفعل مـــن حركة ، ولا سكنة ولا كلمة ولا خطوة إلا والله معك ، يموت هذا بعلم من الله ، ويولد هذا بعلم من الله ، ويمرض هذا والله بعلمه ، ويشفى هذا والله يعلمه .

فجلس طاووس ينظر فإذا بجلبة السلاح والحراس والرماح ، فالتفت قال : فـــإذا هـــو الحجاج ابن يوسف ، قال : فالتفت فإذا جلبة السلاح فسكنت مكاني وإذا بأعرابي ، إعرابي لكنه مسلم متصل بالله يطوف بالكعبة ، فلما انتهى من الطواف أتى ليصلي ركعتين ،فنشبت حربة في ثيابه فارتفعت فوقعت على الحجاج ، فمسكه الحجاج بيده .

فقال له الحجاج : من أين أنت ؟

قال : من أهل اليمن .

قال : كيف تركتم أخي ؟ وكان أخوه محمد بن يوسف عاملا على اليمن .

قال : من أخوك ؟

قال : أنا الحجاج أخي محمد .

قال : تركته سمينا بطينا – انظر إلى الإجابة ما أحسنها ..

قال : ما سألتك عن حالته وسمنه وبطنته سألتك عن عقله ؟

قال : تركته غشوما ظلوما .

قال : أما تدري انه أخي ؟

قال : أتظن انه يعتز بك أكثر من اعتزازي بالله ؟

قال طاووس : والله ، ما بقيت في رأسي شعرة إلا قامت .

قال ابن عبد الهادي ك دخل ابن تيمية الإسكندرية ، دخل يريدون سجنه ، فأخرجوه من سجنه إلى سجن آخر ، لماذا يسجن ؟ يسجن لتثبت لا اله إلا الله في الأرض ، يرد على المبتدعة والملاحدة والزنادقة والمعتزلة والجهمية والاشاعرة ، فقال له أحد المبتدعة : يا ابن تيمية ، واله ، كل هؤلاء يطالبون بدمك ، ويريدون قتلك الآن .

فقال ابن تيمية أتخوفني بالناس ، ثم نفخ في كفه قال : واله ، كأنهم ذبان ، لكن من مثل ابن تيمية ؟

قال بعض المفسرين : لما خلق اله ، سبحانه وتعالى، آدم تركه أربعين يوما هكذا ، فكان يمر به الشيطان فينظر إليه من طين فينخ فيه فيجلجل نفخه فيه فعرف انه ضعيف لا يتماسك.

وقال الله عز وجل :{وَخُلِقَ الْإنسان ضَعِيفاً} (النساء: من الآية 28)وخلق ظلوما جهولا ، وخلق عجولا ، وهي في الإنسان طبعة إلا إذا رتبها ونقاها وسيرها بالكتاب والسنة فإنها تصلح ، بإذن الله .

فلما نفخ الله فيه من روحه ، سبحانه وتعالى ، وهذا شرف ، أحياه الله للملائكة : اسجدوا لآدم .

ولنا إن نتساءل ، لماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ؟

أولا : يمتحنهم لطاعة هل يطيعونه أم لا ؟

ثانيا : يرى من يعصي منهم .

ثالثا : يرى الناس فضل آدم ، عليه السلام ، فقاموا فسجدوا جميعا إلا إبليس تكبر ، ولماذا تكبر ؟

قال ابن عباس : كان إبليس اعلم الملائكة لكن ما نفعه علمه ، بل زهى وتكبر وافتخر. وقال في بعض الروايات — أوردها ابن كثير وغيره – : كان إبليس ملك السماء الدنيا ، هو مسؤول عن السماء الدنيا ، فأبى إن يسجد لما قال الله للملائكة اسجدوا ، فأتى يعترض ، ويقول لرب العزة الذي خلق السماوات والأرض ، ويعلم ما تحت الثرى . يقول : خلقتني من نار وخلقته من طين ، أأسجد وأنا اشرف العناصر ، عنصري من نار وعنصره من طين ؟

والنار اشرف من الطين فكيف تسجد النار للطين ؟ هذه الكلمة هي بداية الخذلان وبداية اللعنة وبداية الحرمان ، اعتراضه هو الكبر {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى} (البقرة: من الآية 34) هذه اشد المفتريات ، رفض إن يسجد وأبى وامتنع ، وما كفى في اللفظ إن يقول : أبى ، بل قال : واستكبر ، ولذلك كانت أركان الكفر ثلاثة :
الحسد ،والكبر ، والكذب .

فمن كان فيه كبر ، فقد اخذ ثلث الكفر ، وما عليه إلا الباقي .

الكبر هذا هو شعار إبليس ، نعوذ بالله .

ومن علامات المتكبر : انه لا يستفيد من غيره ، ولا يرى الفضل لغيره ، ولا ينقاد للحق إذا عرفه ، ويعرف بلفظه ويعرف بمشيته ،ويعرف بنحنحته ، ويعرف بسعلته .
قالت العرب : أحمق الناس المتكبر ، ولذلك أحمق الطيور الطاووس ؛ لأنهم متكبر .

ذكروا لبعض الحمقى من السلاطين المتكبرين ، ما الله به عليهم ، سلطان من السلاطين عزل عن منصبه ، فذهب إلى قرية من قراه ، ففرشوا له ملاحفهم وعمائمهم في الطريق ؛ لأنهم جاد عليهم بمال وهو في عمله ، فالتفت إلى الناس وقال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

ومر وزير من الوزراء العباسيين على الجسر – جسر بغداد – وقف قبل الجسر ، وقال : والله ، إني أخشى إن لا يحمل الجسر شرفي ، وان ينكسر بي في النهر .

وذكروا عن الحجاج بن أرطأ : أحد المحدثين ، رحمه الله ، انه دخل المجلس فجلس في طرف الناس ، فقالوا : اجلس في الصدر ، قال : حيثما جلست فأنا صدر ، في أي مكان اجلس فأنا صدر ، وهذه من عبارات الكبر التي اكتسبت في أصل ذاك العنصر أو أخذت بالاقتباس .

وفي هذه الآية : { أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (البقرة: من الآية 34) .
قال المفسرون : كيف يقول : وكان من الكافرين ولم يكن هناك كافر ، بل أول الناس آدم ؟

قالوا : سوف يكون في علم الله انه من الكارين ، وهو الرأي الصحيح .

قال : {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أنت وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} (البقرة:35) سجد الملائكة ، و أراد الله إكرام آدم فأسكنه جنة الخلد ، وقد أورد ابن القيم وغيره في الجنة التي أسكنها وزجه أقوال ، هل هي جنة في الأرض وبستان في الأرض ، أم هي جنة الخلد؟

والصحيح : إنها جنة الخلد ، أدخله الله في جنة الخلد .

قالوا : فاستوحش ، عليه السلام ، وما كان معه أحد ، فجلس فارغا والتفت يريد إن يجلس مع أحد ، لكن من يجلس معه ؟ الملائكة لهم جنس خاص ، الجن جنس خاص ، وهو يريد من جنسه .

ولما استوحش آدم ، عليه السلام ، نومه الله ، كما يقول أهل التفسير ، – منهم ابن كثير – : نومه ، وأخذ من ضلعه الأيسر حواء ، ما أضعفنا ، وما أذلنا ،وما أقلنا ، وما أحوجنا إلى رحمة الله ، إنسان هذا خلقه ، وهذه أمه ، ثم يأتي الإنسان ، ويظن انه واحد العالم ، فريد العصر ، وان الناس ليسوا بشيء ، يركب الكبائر ، ويأتي بكل جرم ،وكل ما خطر له ، ويسنى تلك النشأة.

خلق الله حواء ، فالتفت آدم إليها بعد إن استيقظ ، فرآها بجانبه فعرف انها زوجته فسكن إليها {وَمِنْ آياتهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفسكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } (الروم: من الآية 21) لماذا سميت حواء ؟ قالوا : لأنها من الحياة ، والله اعلم .

قال الله لهم : كلوا من الجنة واسكنوا في الجنة ،وتمتعوا في الجنة ، هذه قصورها ، وهذه أنهارها، وهذه ثمارها ، وهذا كل ما لذ وطاب ، لكن هذه الشجرة لا تأكلان منها ، لماذا ؟ امتحان وابتلاء من الله ليرى عودتهم ، وليرى صدقهم ، وليرى إيمانهم .

ما هي هذه الشجرة ؟ اختلف أهل العلم فيها على أقوال .

قيل: السنبلة .

وقيل : العنب .

وقيل : التين .

وذلك كله لا يهم ، يقول ابن جرير : إن الله لم يحددها أسما بعينها ، و لم يسمها لنا ، و لم يأت بها قران ولا سنة فلماذا نتكلم ؟

فأحب شيء للإنسان ما منع عنه الآن ، لو تدخله غرفة مكيفة مفروشة ، عنده ما لذ وطاب من الطعام والشراب ومرتاح ، فتقول : أحذر لا تخرج من هذه الغرفة ، وإن خرجت عاقبناك عقابا أليما ، فيأتي ويقول : منعني من الخروج ، حبسني في هذا المكان ، حسنا الله عليه .

قال علي بن أبي طالب : لو منع الناس من فت البعر لفتوه .

ولذلك انظر إلى الخمر الآن ، تذهب العقل واللب وتفسد الأسر ، وتسبب المذابح بين الأهل والأقارب ، وترتكب بها الطامات، ومع ذلك يسافر لها بعض الذين لا يرجون لله وقارا ، ولا يخافون لله هيبة ، ولا رقابة ، يسافرون إلى بلادها ، بل بعض الناس بلغ الثمانين من عمره ، وهو يعاقر الخمر ويشربها ، وقد ذهب لبه وعقله وأرادته ، وهو ممنوع منها ، وكذا الزنا وكذا النظر إلى المحرمات والربا وغيرها ؛ لأنه منع .

وهذه هي التكاليف ، ولو كانت المسالة بلا منع ولا حظر ، لما كان هناك ابتلاء ، وكان الناس في الجنة ، وما عرف الطيب من الخير والمؤمن من الكافر .

فلما منعه الله ، أتى إبليس يوسوس له ، هذه العداوة ،والسؤال كيف دخل معه إبليس الجنة ؟

سبق ، وان ذكرنا ، أنهم كانوا في السماء ، وخلق الله آدم في السماء ،ثم اسجد له الملائكة ، ورفض إبليس ، وجعل الله عز وجل آدم وحواء في الجنة وإبليس بمنأى ، فلما حذرهم الله من الشجرة أتى إبليس يوسوس لآدم وحواء ، فأين وسوس لهما ؟

لأهل العلم ثلاثة آراء وأقوال :

القول الأول : قالوا : هو مطرود محروم ، لكنه دخل يوسوس ولا يتنعم ، فهو مطرود من رحمة الله ، لكن جعله الله يذهب ؛ لأنهم سال الله إن يمهله ليغوي آدم وذريته إلا قليلا ، فأنظره الله ، فهو يدخل بلا حجاب ، ويدخل بلا حرس ، ويدخل عليك وأنت في فراشك ، وأنت في السيارة والطائرة ، وهو معك يجري منك مجرى الدم .

والقول الثاني : قالوا : أخذته الحية ، حية شارقة مارقة ابتلعت إبليس ،ثم دخلت الجنة ، أوردها أهل التفسير .

والقول الثالث : قالوا : وسوس من بعيد ، ما دخل الجنة ، لكـــن اخـــذ يوســـوس فوصلت الوسوسة .

والراجح، هو : الرأي الأول ، انه دخل مطرودا محروما لكن أتى يوسوس فـــانظر إلى وسوسته {وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَـــيْنِ أَوْ تَكُونَـــا مِـــنَ الْخَالِدِينَ} (لأعراف: من الآية 20) فصدقه آدم .

الإنسان يصدق إبليس ، حتى الآن ، ولو كان مؤمنا ، يأتيك فيقول مثلا : جارك مـــا تكلم عليك بتلك الكلمة إلا لمقصد في نفسه ، ما هو مقصده ؟ قال : امتهانك واحتقـــارك والازدراء بك ، فيقول : صدقت ،ويذهب بسيفه وخنجره يقاتل جاره .

يغض طرفه في السوق ،قال : أنت ما نظرت إلى السحر الحلال ، لو نظرت إلى الجمال نظرة واحدة فقط ، حتى ترد نفسك بنظرة واحدة ، ينظر النظرة فيكون هلاكه فيها .

وتسمع الأغنية الماجنة يقول : ما عليك من الغناء ن هذا حلال ،والعلماء الذين قـــالوا بتحريمه ليس عندهم دليل ثابت ، اسمع وتمتع قليلا ، وأنت ما ارتكبت جريمة ، لا شربت خمرا ولا زنيت ، أنت تستمتع إلى أغنية ، فيسمع الذي يقول : هل رأى الحب ســـكارى مثلنـــا فيسكر ، ثم يزني ، ثم يرتكب الفواحش يدهده على وجهه في النار .

فوسوس لآدم ، فاستمع له آدم ، فأكل من الشجرة ،وأكلت حواء ، فلما أكلا سقط اللباس الذي يواري عوراتهما ، وعليهما لباس الجنة وحسن الجنة وحلي الجنة ، وبهاء الجنـــة تناثر في الأرض .

لا اله إلا الله ، ما أشده من موقف ، هذا موقف المسكنة ، موقف الذنب والخطيئة .

يقولون : إن يوسف ، عليه السلام ، لما هم بالمرأة وهمت به سمع هاتفا يقـــول : يـــا يوسف ، لا تزني فان من زنى كالطائر الذي عليه ريش نتف ريشه .

وهذه مغبة المعصية ، انظر كيف سلب الحياء والجمال والحلي وكل نعمة ، فأصبح في موقف هو وحواء عراة ، فأخذا أوراق الشجر ، عليه السلام ، وعليها الـــسلام ، يغطيـــان

عوراتهما من الناظرين إن كان ملائكة أو غيرهم ، فأتاهم الخطاب مباشرة {اهبطا} (طه :123) فالعصارة لا يجاورون الواحد الأحد ، وهذه ، والله ، أعظم مصيبة منينا بها .
يقول ابن القيم :

ولكننا سبي العدو فهل ترى *** نعود إلى أوطاننا ونسلم

يقول : نحن سبينا من الجنة ، سبانا إبليس وأنزلنا في الأرض ، فيا ليت !! متى نعـــود لأوطاننا ، نحن أهل الأوطان أهل الأنهار أهل القصور .

يا راقدا يرنو بعيني راقـــــــد *** ومشاهد لأمر غير مشاهـــــد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي *** نزل النعيم وفوز خلد واحـــد
ونسيت إن الله أهبد آدمـــــــا *** من جنة المأوى بذنب واحـــد

فكيف بنا نحن وقد أتينا بعشرات من الذنوب ؟

فحي على جنات عدم فإنها *** منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى *** نعود إلى أوطاننا ونسلـــــم

هبط ، عليه السلام ، وانظر إلى الهبوط من علو من جنة الخلد ن هبط ووقع في الأرض ، ارض يابسة ارض قاحلة .

نقل أهل العلم ، عن ابن عباس : أما آدم فهبط في الهند ، وبيده غصن شجرة ، وقالوا : وأما حواء فهبطت بجدة ، ونقل غيرهم : هبط آدم على الصفا وهبطت حواء على المـــروة ،ولا يهمنا هبط هنا أو هنا ، فان المقصود : إن الله أهبطهم إلى الأرض ، أمـــا آدم ، عليـــه السلام ، فهبط بغصن شجرة ، فترل هذا الغصن فنبت في الهند ،فقالوا : كل بخور ، وكـــل طيب يأتي من الهند من آثار ذاك العود.

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّة} (البقرة: من الآية 35) .

اسكن لفظ فيه حياة ، ما قال : اقعد ، ولا قال : اجلس ، بل قال : اسكن ، وهـــذه الكلمة فيها من اليقين والطمأنينة والفرح والبشر ما الله به عليم{ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

وَكُلا مِنْهَا رَغَداً } (البقرة: من الآيـــة 35) هنا ليس الرغد إلا في الجنة، قد يطلق مجازا على الدنيا : عيش رغيد ، لكن إذا سمعت الإنسان يقول : أنا في عيش رغيد مستمر ، فلا تصدقه .

هشام بن عبد الملك قال لوزرائه : تعالوا نحصي الأيام التي أتاني السرور فيها منذ توليت الخلافة ، تولى سنوات الخلافة ، فحسبها فوجدها ثلاثة عشر يوما ، سنوات كلها تصفي 13 يوما سلم فيها من النكود والزلازل والفتن والمحن ، يعني 13 يوما استقر حاله فقط .

فقال لوزرائه : لا جرم – يعني : لا جرم : لا ريب ، لا شك – أخلون غدا في بستاني ، وعلي الحراسة لأسعد من الصباح إلى المساء .

قالوا : فخرج في بستان له في روضة دمشق وقال للحرس : لا تستقبلوا رسولا ، يعني : رسولا موفدا ، ولا تأذنوا لأحد ، ولا تسمعوني مشكلة واتركوني في هذا البـــستان يومـــا كاملا .

فجلس في هذا المكان من الصباح ، فلما قرب الظهر وإذا هو بسهم فيه دم وقع بجانبه ، فرفع السهم فوجده طار من اثنين تقاتلا خارج البستان وأتى إليه السهم ، قـــال : ولا يـــوم واحد – حتى يوم واحد – ما نسلم من المشاكل .

لا دار للمرء بعد الموت يسكنهـــــــا *** إلا التي كان قبل الموت بانيها

إن بناها بخير طاب مسكنـــــــــــــه *** وان بناها بشر خاب بانيهـــــا

يقول أبو الفتح البستي أحد العلماء :

يا عامرا لخراب الدار مجتهدا *** بالله هل لخراب الدار عمران

ومن العجيب ، انك تجد الشيخ الكبير ، عمره يناهز الثمانين ، ومع ذلك تجده حريصا على طلب الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ((يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتـــان : الحرص على المال . والحرص على العمر))[4].

هذا هو الإنسان وهذه طبيعته ، ولا يعرف حقيقة الدنيا إلا من عرف الله ورسول الله والدار الآخرة .

---

[4] أخرجه مسلم (1047) عن انس بن مالك ، رضي الله عنه .

عندما أتت هارون الرشيد سكرات الموت قال : أخرجوني أرى الجيش ، فخرج جيشه فإذا هم تسعون ألفا ، فنظر إليهم ، وقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه .

الوليد بن عبد الملك بنى قصورا في دمشق ما يعلمها إلا الله ، وهو الذي وسع المسجد النبوي ووسع المسجد الأقصى ، وأتى بالمشاريع الهائلة ، بنى قصورا وحدائق لا يعلمها إلا الله ، فلما أتته سكرات الموت لبط وجهه في الأرض وضرب وجهه ، وقال : {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ(28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} (الحاقة:28 - 29) وهذا عبد الملك بن مروان عندما حضرته سكرات الموت سمع غسالا ، بجانب القصر ، قال : يا ليتني كنت غسالا يا ليت أمي لم تلدني ، قال سعيد بن المسيب لما سمع الكلمة : الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا وقت الموت ولا نفر إليهم .

أما ميمون بن مهران وهو أحد الصالحين الكبار ، فقد حفر قبرا له في قعر بيته ، في حوشه في داره ، فإذا أراد أن ينام توضأ ونزل في القبر وبكى كثيرا ، ثم خرج من القبر قال : يا ميمون ، عدت إلى الدنيا فاعمل صالحا .

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً } (البقرة: من الآية35)

هذا الرغد لا يكون إلا في الجنة ؛ رغد لا هم ولا غم ولا حزن ، فأهلها لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمرضون ، ورشحهم المسك ، قلوبهم على قلب امرئ واحد ، خلا من كل حقد وحسد وغيظ وبغضاء ، لا يخافون موتا ولا جوعا ولا هرما ، ولا يصيبهم سوء أبدا {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أنفسهُمْ خَالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأكبر وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) } الأنبياء (101-103).

(وقلنا يا آدم اسكن ... فتكونا من الظالمين . قربا من الشجرة فظلما أنفسهما ، فنزلا إلى الأرض .

أولهما : الوضوء دائما إن تكون على طهارة الوضوء هذا حصن حصين .

الأمر الثاني : الأذكار ، الأذكار دائما وأبدا ، خاصة آية الكرسي ، فهي تحرق الشياطين ، والمعوذات وقل هو الله أحد ، ولا اله إلا الله محمد رسول الله ، ولا اله إلا الله

وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، مائة مرة ، وفي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من قالها في يوم مائة مرة كتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له عدل عشر رقاب ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ،ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا رجل عمل بعمله أو زاد عليه))[5].

ومن الحروز من الشيطان : إن تتبع أمر الرحمن من غض البصر ، وحفظ الأذن ، وحفظ اليد ، وحفظ البطن ، وحفظ الفرج ، فهذه من الحروز.

ومن الحروز أيضا : إن إذا غضبت فلا تتكلم ، وان تسكت ليزيل الله عنك سبحانه وتعالى وسوسة الشيطان .

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} (البقرة: من الآية36) الشيطان من الجن على كل حال ، بعضهم يكون من الملائكة ، وبعضهم يكون من الجن ، لكن قال سبحانه وتعالى : {كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (الكهف 50) هذا الشيطان .

والشيطان ، فيه حجم كبير ، وحجم صغير على كل المستويات ، إذا كان الإنسان ضعيفا يرسل له شيطانا من الدرجة الثالثة ، وإذا كان الإنسان من الغليظين يرسل له شيطانا أقوى ، والمؤمن شيطانه ضعيف ، ضعيف جدا يقول : أنهكه وأضناه كالجمل الضعيف ؛ لأنهم كلما حاول الشيطان أن هذا العبد قال : استغفر الله ، وعاد إلى الله وتاب إلى الله ، و أنهدم المبنى يجره معه ، فإذا أراد أن يدخله بيته ، قطع الحبال وفر ، فهو دائما في صراع.

ومن المؤمنين من لم يستطع لهم إبليس أبدا ،حاول وحاول ثم ترك ، أما بعض الناس فيأخذهم يمينا وشمالا .

رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول : (كل منكم له قرين وكل به) يعني: من الشياطين .

قالوا : حتى أنت ، يا رسول الله .

---

[5] أخرجه البخاري (3293) ، ومسلم (2691) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

قال : (حتى أنا ، لكن الله أعانني عليه فأسلم))[6] ، أعانه الله على شيطانه فأسـلم ، أعلن الإسلام فلا يأمره إلا بخير ، وأما نحن فالقرين مضاد دائما ، لكن نتحفظ منه بالآيـات والأحاديث .

يقول ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم يأتي كالحية ، هكذا جـاثم علـى القلب ، فإذا سكت وغل الإنسان وسوس ، وإذا ذكر الله خنس ، وهو يجري من الإنـسان مجرى الدم .

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } (البقرة: من الآية36) من النعيم المقـيم وقرة العين ، أخرجهما إلى الدنيا .

{ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} ، إذن : العداوة بين الناس قضاء كوني قدري من الواحد الأحد ، ولكن تزول العداوة بالإيمان ، والله عز وجل يقول : {وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ } [هود : 118:119].

ولكل شيء آفة من ضده *** حتى الحديد سطا عليه المبرد

الحديد ، وهو الحديد ، سلط عليه الله المبرد ، وهذا يقسمه نصفين، كل شيء له عدو ، تجد الشاة ما تخاف من الحمار، ولا تخاف من الجمل ،لكن إذا رأت الذئب خافت وثبتـت مكانها ، ولا تأخذ خطوة لأنهم عدوها ، والحمار له عدو وهو الضبع ، والثعبان للإنـسان ، وهذه المواشي للأسود ولغيرها ، لكن هي فصائل .

يقول أهل العلم : من العداء الذي جعله الله في الأرض العداء الذي جعله بين الأجناس ، ولذلك نجد بعض الحيوانات تتوافق وبعضها تتعادى .

قال : (بعضكم لبعض عدو) فالله هو الذي جعل هذا العدوان لهذا الأمر ، والنـاس كذلك بينهم عداء ، والعداء على قسمين بين الناس :

قسم بحق ، وهو عداء أهل الحق لأهل الباطل {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَـدُوّاً مِـنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً }[الفرقـان: 31] {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِـبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة 251]

[6] أخرجه مسلم(2814) ، عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه .

وأما العداء الباطل ، فعداء المؤمنين بعضهم لبعض وهذا يحصل ، ولكن على المؤمن أن يصلح ، وان يكظم الغيظ ،وان يحسن ، وان يحلم ،وان يصبر ، {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: 134]

ويقول سبحانه وتعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف 199]

ويقول سبحانه وتعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34]

يقول علي ، رضي الله تعالى عنه و أرضاه ، في معركة الجمل لما رأى طلحة مقتولا ، مسح التراب عن وجهه ،وقبله وقال : يعز علي ، يا أبا محمد ، أن أراك مجندلا على التراب ، ولكن أسال الله أن أكون أنا وإياك ممن قال فيهم الله عز وجل : {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } [الحجر : 47]

يعني : لابد من شيء بين المؤمنين ، حتى نجد من الدعاة والعلماء من يكون فيه غل ،لكنه يترعه ، سبحانه وتعالى، يوم القيامة ، فيصبحون أصفياء إخوانا أصدقاء أحباء ، وهذا لا يكون إلا في الجنة ، ولكن في الدنيا لا بد أن يسود الإخاء ، يقول أبو تمام في مسالة الدين والإسلام :

إن كيد مطرف الإخاء فإننا *** نغدو ونسري في إخاء تالد

أو يختلف ما الغمام فماؤنا *** عذب تحدر من غمام واحد

أو يفترق نسب يؤلف بيننا *** دين اقمناه مقام الوالد

هذا هو نسبنا ، نسب الدين .

{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (البقرة: من الآية36) تستقرون في الأرض ، ومتاع إلى زمن قريب ، ووالله ، انه زمن قصير ، وانه عيش بسيط سهل ، أنها كلمحة البصر .

عاش نوح ، عليه السلام ، ألف سنة ، فلما أتته سكرات الموت قالوا له : كيف وجدت الحياة ؟

قال : وجدت الحياة كأنها بيت له بابان ، دخلت من هذا وخرجت من هذا .

وقال علي ، وهو يبكي في ظلام الليل : يا دنيا يا دنية طلقتك ثلاثا ، عمرك قصير ، وسفرك طويل ، وزادك حقير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ،ولقاء الموت !!

كل الدنيا ليست إلا لمحة {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ إنكم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) } [المؤمنون]

{وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } هي : الدنيا متاع فقط ، يعني خير متاع تتمتع فيه إلى حين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، أو إلى حين الموت {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)}[ق] ، فحين تفيض روحك فلا عليك من العالم أن يتأخر بعدك ، أو يتقدم إذا قامت قيامتك .

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (البقرة:37) يا رب ، لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك الثناء الحسن .

أذنب آدم وانزل واهبط ، فاخبره الله بكلمات يقولها ليتوب الله عليه ، قال له : قل : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)) [القصص] ، وقال له ولحواء قولا : {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفسنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الأعراف : 23] ، فمد يديه ، عليه السلام ، وقال : ربنا أننا ظلمنا أنفسنا ، فان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، فتاب الله عليهما ، فمن فعل مثل أبيه في الذنب فليفعل مثله في التوبة .

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ } وقالوا : الكلمات ، هي : لا اله إلا الله سبحانك أني كنت من الظالمين .

وقولوا : الكلمات : لا اله إلا الله الحكيم العليم ، لا اله إلا الله رب العرش العظيم ، لا اله إلا الله رب السماوات والأرض رب العرش الكريم .

وقالوا : الكلمات قال : استغفر الله الذي لا اله إلا هو ، وكلها تدخل في الاستغفار ، إنما علمه الله كلمات فأنقذه بالكلمات ، وهذه هي التوبة ، وفي حديثه صلى الله عليه وسلم مرفوعا : ((يا ابن آدم انك ما دعوتني ورجوتني على ما كان منك ، غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم جئتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)) [7]

إن كان لا يرجوك إلا محسن *** فبمن يلوذ ويستجير المجرم

ما لي إليك وسيلة إلا الرجـــا *** وجميل عفوك ثم إني مسلم

وقال الأول :

سبحان من يعفو وهفو دائما *** ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يعطي الذي يخطئ ولا يمنعه *** جلاله عن العطا لذي الخطأ

انظر ما أكثر المعاصي : زنا ، وربا ، وقطيعة رحم ، وعقوق والدين ، وضياع أوقات ، وتفلت على أمر الله ، وترك للصلوات ، والرزق يأتينا من كل مكان.

يعطي الذي يخطئ ولا يمنعه *** جلاله عن العطاء لذي الخطا

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ } فقالوا آدم وقالتها حواء ، فغفر الله لهما وتابا عليهما ، انه هو التواب الرحيم ، ما أحسن الكلمات .

النصرانية تفتك الإنسان إذا أذنب قالت له : خزيت وبعدت ليـــست لـــك توبـــة ، واليهودية كانت التوبة عندهم قتل أنفسهم .

قال سبحانه وتعالى : {فَاقْتُلُوا أنفسكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَـــيْكُمْ} [البقرة :54] ، والإسلام يقول لك : إذا أذنبت توضأ وصل ركعتين ، واستغفر الله من الذنب ، وتب توبة نصوحا

ما أسهل الإسلام وما أيسر الإسلام ،وما أوسع باب الله ، عطاؤه ممنوح ، فضله يغدو ويروح ، وبابه مفتوح ، ولذلك أرهقتنا الذنوب ؛ لأننا ما عرفنا طريق التوبة {فتلقى آدم من

---

[7] صحيح
أخرجه الترمذي (3540) عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، وصححه ، وانظر تصحيح أهل العلم له في ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي .

ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم } {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أنفسهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[آل عمران: 135] ، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أنفسهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }[الزمر : 53] ، ويقول تعالى في الحديث القدسي : ((يا عبادي إنكم تذنبون بالليل والنهار ، وأنا أغر الذنوب جميعا فاستغفروني اغفر لكم)) [8].

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:38) قلنا : اهبطوا منها جميعا من الجنة ، قيل : هبط آدم وحواء ، وبعضهم يقول : مع آدم وحواء الحية والشيطان { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً }(البقرة: من الآية38) ما هو الهدى ؟

الهدى : دين الله الذي يبعث به رسله ، كل الرسل اتوا بالهدى وكل له شريعة، وهم يتفقون أنهم أتوا بالإسلام { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: من الآية38) .

ما الفرق بين الخوف والحزن؟

الخوف على أمر مستقبل تخاف من أمر يأتيك ، والحزن على أمر فات ، فلا خوف عليهم ،ولا هم يحزنون ،وهذا كقوله سبحانه وتعالى {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً } [طه : 124،123]

قال ابن عباس : كتب الله ، عز وجل ، على نفسه أن من اتبع هذا القران ، فاحل حلاله وحرم حرامه ، أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً}[طه : 124] معه دراهم ودنانير ودور وقصور وسيارات ، لكن عليه الضنك ، وعليه اللعنة ,وعليه الغضب {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آياتنا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126)}[طه]

{قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} ، وقد أتى والله .

[8] أخرجه مسلم (2577) عن أبي ذر ، رضي الله عنه .

والله لقد أسمعت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم راعي الغنم في الصحراء .

والله ، لقد سمعت بدعوته العجائز في بيوتهن ، وفي خدورهن.

والله ، لقد نفذ إلى العاتق من النساء ، إلى البكر من النساء ، إلى العذراء من النساء .

من دعوته ما وصل علماء الصحابة في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والله ، لقد سارت دعوته مسير الشمس ، ومسير الليل والنهار ، فما هو عذرنا إذا قلنا ما آتانا ، ما بين لنا ، ما وضحت الطريق ،ولا والله قد وضحت كل الوضوح ،وقد بينت كل البيان {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس : 70] فمن هو الحي ؟؟ أهو الذي يأكل ويشرب ويزمر ويغني لياليه وأيامه ؟ هذا صحيح يسمى حيا مجازا ، حياة الشاة لأنه يأكل ويشرب ، لكن قلبه ليس بحي {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}[الأنعام : 122] لا سواء ، فالحياة هنا هي حياة الإيمان ، حياة القران ، حياة الذكر ، حياة الاتصال بالله ، حياة حفظ الوقت ، حياة طلب العلم ، حضور مجالس الخير ، واستماع إلى كلام الخير ، هذه هي الحياة أما غيرها فهي حياة (الخواجات) .

والله ، كيف ينعم الإنسان كيف يهدأ باله وهو ليس مستقيما ؟ والله ليس راض عنه ، تجد عنده قصور ،عنده دور ، عنده مناصب ، لكن الله غضبان عليه من فوق سبع سماوات ، كيف يهدأ ؟ كيف يرتاح ؟ وبعد أيام يرتحل إلى الله {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ }[الأنعام : 94] أتى صلى الله عليه وسلم يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فمن أطاعه اهتدى ، ومن عصاه تردى .

* *

حوار في السماء

يقول الله تبارك وتعالى : {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة : 29]

هذه الآية يستدل بها أهل العلم على أن كل ما في الأرض فيه الإباحة ،وانه مباح ، وهي قاعدة أصولية أخذوها من هذه الآية .

إن الله عز وجل قد احل الطيب المفيد وحرم الخبيث الضار ، وقوله تعالى:{خَلَقَ لَكُم} فلكم هنا للملكية أي : مباحا لكم وطيبا لكم ، ومهيئا لكم ؛ بشرط أن يكون هذا الشيء نافعا ومفيدا ، أما إذا كان ضارا فلا ، بل هو محرم .

وإنما ذكر الله هذه الآية ؛ كما قال أهل التفسير بعد قوله ، سبحانه وتعالى : {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ} (البقرة: من الآية28) ليذكر منته على الخلق سبحانه وتعالى .

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} (البقرة: من الآية29) .

جميعا :تعود إلى ما في الأرض .

وبعضهم يقول : تعود إلى الناس : لكم أيها الناس جميعا .

والأقرب : أنها تعود على ما في الأرض .

{ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} (البقرة: من الآية29) فسبحان الخالق ! ولكن نحن لا نتدبر ولا نتفكر ولا نعي .

يقول بعض أهل العمل : إن المساس يبطل الإحساس ، فمن كثرة تعودنا على رؤية السماء ، ورؤية القمر ، ورؤية الشمس ، ورؤية النجم ، أصبحنا لا نتدبر ولا نتفكر ، لكن إذا خرج مصنوع جديد صنعه الإنسان تفكرنا فيه وتدبرنا.

أعرابي يمشي في ليلة من الليالي ، ليلة مظلمة ، وفجأة طلع عليه القمر ، والقمر أزهى شيء عند العرب ، فدائما يشيدون به في أشعارهم ،ودائما يصفون الجمال بالقمر والبدر ، فنظر في القمر ، وقال : سبحان من سواك ! سبحان من رفعك ! إن قلت : جملك الله فقد

جملك الله ، وإن قلت : رفعك الله فقد رفعك الله ،وإن قلت : بهاك الله وحسنك الله فقد حسنك الله ، والمقصود أن ما يعتاده الإنسان لا يأبه به دائما لطول العهد.

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } (البقرة: من الآية29) ربما يقول أحدكم : هذه تدل على استواء الله على العرش .

فأقول : هذه الآية لا تدل على ذلك ، بل غيرها يدل على ذلك بوضوح ؛ كقوله ،سبحانه وتعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه : 5] فهذه هي التي تدل على ذلك.

أما هذه الآية فقالوا : أي : قصد ، سبحانه وتعالى ؛ لأنه عدى ذلك بإلى.

وهنا سؤال يطرح بين طلبة العلم : هل خلق الله الأرض خبل خلق السماء ؟ أم العكس ؟ فهو سبحانه يقول : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات) فكأن الأرض خلقت قبل السماء .

لكن في آية أخرى يقول سبحانه وتعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[فصلت : 11] ، ويقول سبحانه وتعالى {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}النازعات : 30] ، وقبلها قوله : {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا } .

فان في هذه الآية : دلالة على أن الأرض خلقت بعد السماء.

وفي آية البقرة : دلالة على أن السماء خلقت قبل الأرض . فما هو الجواب لهذا التساؤل؟

قد أجاب عن هذا حبر الأمة ، وترجمان القران ابن عباس ، رضي الله عنهما : بان الله خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء ، ثم دحا الأرض ، سبحانه وتعالى ، فالأرض أخذت مدة يومين ، والسماء أربعة أيام ، فكلها ستة أيام .

قال : {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ }(البقرة: من الآية29) . هنا لم يذكر ، سبحانه وتعالى ، الأرض .

وذكر ، سبحانه وتعالى ، في القران {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[الطلاق 12] يعني : سبع أراضين مثلهن ، ومما اكتشف ، كما سمعنا من كثير من الثقات الذين اعتنوا بعلم الهيئة

والجيولوجيا ، أن الأرض سبع طبقات طبقة على طبقة ، وكل طبقة لها لون آخر ، ولها مزاج آخر ، ولها تكيف آخر ، ولها تضاريس تختلف عن الأخرى .

إما السماوات ؛ فهي سبع مرتفعة ، بين السماء والسماء مسيرة خمسمائة عام.

وبعض أهل العلم يقول : سماء من حديد ، وسماء من نحاس ، وسماء من فضة ، لكن ما علمت على هذا دليلا من المعصوم صلى الله عليه وسلم ، لكنها كواكب تدور فيها.

وقد رأى صلى الله عليه وسلم السماوات السبع ، وقابل فيها الملائكة والأنبياء السابقين ، كما في حديث الإسراء .

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكته *** والرسل في المسجد الأقصى على قدم

كنت الإمام لهم والجمع محتفل *** أعظم بمثلك من هاد ومؤتمم

لما خطرت به التفوا بسيدهم *** كالشهد بالدر أو كالجند بالعلم

حتى بلغت مكانا لا يطار له *** على جناح ولا يسعى على قدم

فبلغ صلى الله عليه وسلم منزلة علية .

قال ، سبحانه وتعالى : {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [البقرة 29] فبعد أن خلق الله الأرض أتى إلى السماء ، فسواهن سبع سماوات وخلقها بلا عمد تروها .

يقول بعض أهل العلم : {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [لقمان 10] .

لها عمد لكن لا تروها ، ولكن الصحيح بلا عمد ، هكذا قائمة على قبة الفلك.

فانظر : هل ترى في خلق الرحمن من تفاوت ؟

فانظر : هل ترى فيها من فروج؟

فانظر : هل ترى فيها من عيب؟

لان الذي بناها هو الله ، ولو كان مخلوقا لرأيت النقص ولرأيت العيب.

ولذلك يقول بعض العلماء : لا يخلو عمل ابن آدم من نقص {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } [النساء : 82] .

أتى رسام هندي إلى ملك من ملوك الهند بلوحة ، قد رسم فيها سنبلة قمح ، ثم رسم على السنبلة عصفورة ، ثم عرضها للناظرين ، فأعجبت المشاهدين فهل الملك مـــن حـــسن الرسمة.

فأخذها هذا الملك وعرضها للناس ، وأعطى ذاك الرجل جائزة ، وقال للناس : من أراد منكم أن ينظر فلينظر.

فاجمع أهل الهند على أن لا عيب فيها .

فأتى رجل من غير الهند اعور ، فدخل عند الملك وقال : رأيت عيبا باللوحة!.

قالوا : ما هو العيب ؟

قال : العصفور إذا نزل على السنبلة تميل ولا تبقى مستقيمة ، وهذا لما رسمها جعلـــها مستقيمة!

قال الملك : صدقت وشطب على اللوحة ، واسترد الجائزة من الرسام !

قوله : { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (البقرة: من الآية29) فيها قضايا :

أولها : أن هذا عام لا مخصص له ؛ فالله عليم بكل شيء .

وإذا قلت للإنسان : انك بكل شيء عليم ، فلا بد من مخصص ؛ لقوله تعالى : {وَفَوْقَ كُـــلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76] .

ولكن من معتقد أهل السنة والجماعة : أن الله مع علمه بائن عن خلقه ، مستو علـــى عرشه.

ومن زعم أن الله حال مع خلقه ، قد افترى على الله ، وكذب على الله .

بل الله ، عز وجل ، موصوف بصفات الكمال ، مستو على عرشه ، يترل كل ليلة في ثلث الليل إلى سماء الدنيا ، فينادي فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من داع فأجيبه ؟ فإذا طلع الفجر عاد سبحانه عودة تليق بجلاله ، ونزولا يليق بجلاله ، لكن لا يغيب عنه شيء فهو يعلم السر وأخفى .

فما تناجى متناجيات إلا علم الله ما دار بينهما ، وما فكرت أنت فيه علم ما فكـــرت فيه ، وهو يعلم السر و أخفى.

قالوا : ما أخفى من السر ؟

قيل : الشيء الذي تريد أن تفكر به.

وقف صفوان بن أمية عند ميزاب الكعبة مع عمير بن وهب ، وهو يحـــاوره فقـــال : أتقتل محمداً؟

قال : اقتله ، لكن من لي بأطفالي وذريتي وزوجتي.

قال : اهلك أهلي ، وأطفالك أطفالي ، اذهب واقتله ، وأنا أكفيك أطفالك.

فذه وتسلح بسيفه ،ولكن غارة الله أقوى من عمير بن وهب.

يا غارة الله جدي السير مسرعـــــة *** في سحق أعدائنا يا غارة الله

وصل إلى المدينة ، يحمل قلبا كله حقد ، وكله ضغينة ، وكله بغضاء ، يريد الانقضاض على سيد البشر ليقتله ، ليرتكب أعظم جريمة ، وأعظم لعنة في التاريخ ، فدخل المدينة ، رآه الرجل المسجد الملهم عمر بن الخطاب.

قد كنت اعدي اعدايها فصرت لها *** بفضل ربك حصنا من أعاديها

فانطلق إليه عمر ، وكان رجلا سديدا ملهما ، فأخذ بتلابيبه وأتى يجره حتى ادخلـــه المسجد.

فرآه صلى الله عليه وسلم فقال : ((اتق الله يا عمير بن وهب ما لك ؟))

قال : يا رسول الله أتيت لأفك الاسارى اسارى بدر ، وأفك أصحابي من الاسارى.

قال : ((كذبت وإنما جلست أنت وصفوان بن أمية تحت ميزاب الكعبة ، فقال لك : كيت وكيت ، وقلت له : كيت وكيت)).

قال : اشهد أن لا إله إلا الله ، واشهد انك رسول الله[9] ! {يَا أيها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[التحـريم : 1] إلى قوله :{قَالَتْ مَـــنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ } [التحريم : 3] فقد آخره تعالى بما تبيته عائشة وحفصة رضي الله عنهما ، له .

---

[9] أخرجه ابن هشام في ((السيرة)) (212/3) ، والطبري في ((التاريخ)) (44/2) ، والطبراني في ((الكبير)) (118) ، والأصفهاني في ((الدلائل)) (140/1) عن عروة بن الزبير ، وانظر : ((الإصابة)) (168/7، 169) ، وهو مرسل جيد.

يا من يرى مد البعوض جناحها *** في ظلمة الليل البهيم الاليل
ويرى نياط عروقها في جسمها *** والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من زلاتـــــه *** ما كان منه في الزمان الأول

فعلمه ، تعالى ، وسع المخلوقات ، وما علم الناس في علمه ، سبحانه وتعالى ، إلا كما يأخذ العصفور من البحر بمنقاره مرة واحدة.

ذهب موسى رضى الله عنه والخضر رضى الله عنه في رحلة بحرية ، فأتى عصفور فأخذ بمنقاره قطرة ماء .

فقال الخضر لموسى : يا موسى أتدري ما مقدار علمي وعلمك في علم الله ؟ قال : الله اعلم .

قال : كما أخذ هذا العصفور من هذا الماء[10] .

هذا علم المخلوق إلى علم الخالق ، سبحانه وتعالى .

قال سبحانه وتعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} (البقـــرة: من الآية30) الآن ابتدأت قصة أبينا المجهود التائب إلى الله ، ومن يشابه أباه فما ظلم!

فما معنى الخليفة ؟ قالوا : هو آدم .

والصحيح : أن الخليفة ، يعني : قوما يخلفون قوما ، وهذا الذي رجحه ابن كثير ؛ كما قال تعالى{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ} [الأنعام 165] فبعضنا يخلف بعض قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة .

قال الشاعر :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض *** إلا من هذه الأجساد
صاح هذه قبورنا تملأ الرحب *** فأين القبور من عهد عاد

يقول : قبورنا ملأت الدنيا فكيف بالقبور التي سلفت وسلفت ؟
وحكمة خلق الخليفة أن يسكن الأرض لمقاصد :

---

[10] أخرجه البخاري (122) ، ومسلم (2380) عن ابن عباس ، رضي الله عنهما.

منها : أن يعمر الأرض كما قال تعالى : {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود :61] .

ومنها : أن يأتي من ذرتيه الأنبياء والرسل صلى الله عليه وسلم والشهداء والعلماء والصائمون والمصلون .

ومنها : أن يبتليه ، سبحانه وتعالى .

كما قال:{إِنَّا خَلَقْنَا الْإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً} [الإنسان : 2].

ومنها : أن يظهر ، سبحانه وتعالى ، قدرته للعالمين ، لأنه لا يكون الملك ولله المثل الأعلى ملكا ، إلا إذا كانت له رعية يتصرف فيهم يقتل هذا ويعفو عن هذا ، ويعطي هذا ويولي هذا ويعزل هذا .

فالله أراد أن يظهر سلطانه في الأرض ، وحكمته البالغة وقدرته النافذة ، ويظهر رحمته وعقابه فأتى بآدم.

ومنها : انه أراد سبحانه وتعالى أن يظهر غفرانه ، ويظهر شديد عقابه ، فانه الغفور الرحيم شديد العقاب ، فكيف نعرف انه غفور رحيم إذا لم يغفر ؟

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ } (البقرة: من الآية30) هذا مجتمع من الملائكة الأطهار في السماء ، ومن حكمته سبحانه وتعالى انه لم يجعل في الأرض من الملائكة ، ولم يجعلهم من الجن ولا من الحيوانات ؛ لان الحيوان شهوة بلا عقل ، والملك عقل بلا شهوة ، والإنسان عقل وشهوة ، فإذا أطاع ارتقى إلى أفضل من الملائكة ، وإذا عصى انحدر تحت البهائم.

وذكر عن بعض المفسرين أن الملائكة قالت : يا رب ، لو أنزلتنا في الدنيا كنا حبسنا شهواتنا وما عصيناك أبدا .

فقال ، سبحانه وتعالى : (إني اعلم ما لا تعلمون).

فانزل الله ملكين (هاروت وماروت) وأعطاهم الشهوة مع العقل .

فلما نزلا في الأرض جلسا في المحكمة يحكمان بين الناس ، فأتت امرأة جميلة ، فتنت هاروت وماروت ، فبقيت بهما حتى زنيا بها.

فخيرهم الله ، عز وجل بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة .

قالوا : نريد عذاب الدنيا فنكسهما ، سبحانه وتعالى ، في بئر هاروت ومـــاروت في العراق بأرجلهما .

والقصة ذكرها مجاهد بسند ضعيف كما في ((سير أعلام النبلاء)) ، وذكرها كثير من المفسرين [11] .

المقصود: أن الله علم انه لا يصلح للأرض إلا آدم وذرية آدم.

والقرطبي يذهب إلى أن إقامة الخليفة واجب بهذه الآية ، وفي اســتدلاله نظـــر ؛ لان الخليفة هنا هو الذي يخلف بعضهم بعضا .

{قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} (البقرة: من الآية30) 0

كيف تعترض الملائكة على الله عز وجل ؟

كيف وقد قال ، تعالى عنهم في آية أخرى : {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَـــا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6].

والصحيح : أن هذا ليس اعتراضا ، وإنما أرادوا أن يظهر الله لهم الحكمة .

قم لماذا قالوا : (يفسد فيها) فما هو دليلهم على انه سوف يكون فساد؟

قال بعضهم : إن الجن عمرت الأرض فترة من الفترات ، فتقاتلوا وافسدوا في الأرض ، فظنت الملائكة أن آدم سيكون مثلهم ، ذكر هذا ابن كثير وغيره.

والإفساد يكون بالمعاصي والظلم والمنكرات.

{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ} فكأنهم يقولون : نحن أولى منهم فنحن أهل التسبيح والتقديس.

قال سبحانه وتعالى : {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ أي : اعلم حكمة لا تعلمونها ، واعلم سرا لا تدركونه ، واعلم مقصدا لا تصلون إليه .

قال أهل العلم : مما علمه ، سبحانه ، من هذا انه سوف يكون من ذرية آدم : رسل ، وأنبياء ، وشهداء ، وعلماء ، ودعاة ، وصالحون ، كإبراهيم وموسى وعيسى ونوح ومحمد ،

---

[11] انظر : ((مجمع الزوائد)) (68/5) ، و ((تفسير الطبري)) (479/1).

عليهم الصلاة والسلام ، وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي ومعاذ وزيد بن ثابت ، ومالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد ، وابن تيمية وابن القيم وابن كثير ، وأمثالهم كثير .

قال تعالى : {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسماءَ كُلَّهَا } (البقرة: من الآية31) أراد الله ، سبحانه وتعالى ، أن يجعل خصيصة لآدم ، فعلمه الأسماء كلها : أسماء البشر والحيوانات والمخلوقات .

قال ابن عباس : علمه اسم كل شيء : البقرة والحمار والفرس ، فهذا الجبل اسمه جبل، وهذه سارية ، وهذا مسجد ، وهذه شجرة ،وهذه زهرة ، وهذا ماء ، وهذا رجل ، وهــذا طير ، وهذه دابة إلى غير ذلك من الأسماء .

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((أن موسى عليه السلام التقى بــآدم فقال له: يا آدم أنت أبونا خلقك الله بيده ،و أسكنك جنته ، وعلمك أسماء كل شيء))[12].

لأن الخليفة والمسؤول لا بد أن يكون على علم وبصيرة ،ولذلك لما اختــار الله لــنبي إسرائيل طالوت قالوا : كيف يكون علينا ملكا ، و لم يؤت سعة من المال ؟

قال الله : {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} [البقرة 247] ففــي العلم عالم ، وفي الجسم كذلك طويل يصلح للملك .

والحسن من كرم الوجود وخيره *** ما أوتي القواد والزعماء

{ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ} (البقرة: من الآية31) أتــى ســبحانه وتعــالى بالحيوانــات والحشرات والدواب والعجماوات ، وقال للملائكة : ما أسماء هؤلاء ؟

فسكتوا ، ثم قالوا : لا ندري ، اله اعلم ، { فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسماءِ هَــؤُلاءِ إِنْ كُنْــتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة: من الآيــة31) أي : صادقين في إنكم أولى بالخلافة في الأرض ، وسكون الأرض من آدم .

أو إنكم اعلم من آدم .

{قَالُوا سُبْحَانَكَ}(البقرة: من الآية32) ما أحسن الرد، (سُبْحَانَكَ) تتريه له تعالى عن النقص. {لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} (البقرة: من الآيــة32) فهذا أدب طالب العلم أن يقول : لا علم لنا إلا ما علمنا الله ، والله اعلم ، ولا يتسرب بالفتيا ، ولا يفتي بجهل ؛ لأهم سو يخطئ ، ويــصيبه

---

[12] أخرجه البخاري (7440) ، ومسلم(182) عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه .

من الخذلان والحرمان ما الله به عليم ، وينطفئ نوره ، ويأخذ ذمم وحجج الناس على كتفه ، ويكون جسرا إلى جهنم للناس .

ولذلك كان الصحابة من اشد الناس حذرا من الفتيا ، فكانوا يتدافعون الفتيا .

ويقولون : كان يتغير وجه الواحد منهم إذا سئل عن مسالة يخاف أن يغلط فيها .

قال علي ، رضي الله عنه : ما أردها على صدري إذا سئت عن مسالة لا اعرفها ، فقلت : لا ادري .

قالوا : نضرب لك أكباد الإبل من العراق ، وتقول : لا ادري .

قال : اذهبوا إلى الناس ،وقولوا لهم : مالكا لا يعرف شيئا ! {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (البقرة:32) فعلم بلا حكمة اضطراب ، وحكمة بلا علم جهل ، والإنسان يجمع في اصله بين صفتين : ظلوما جهولا .

قال ابن تيمية : ظلوما : يحكم بلا عدل ،وجهولا : يحكم بلا علم .

ولذلك يشترط في الحاكم أن يكون عالما عادلا ، وهما صفتان جميلتان جليلتان .

{قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسمائِهِمْ } (البقرة: من الآية33) أي : بأسماء هؤلاء المخلوقات ،{ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} (البقرة: من الآية33)

فالباطن لا يعلمه إلا الله ، أما الظاهر فيعلمه الناس {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخرة هُمْ غَافِلُونَ } [الروم : 7] {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخرة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ }[النمل : 66] .

وفي هذه الآية : شرف العلم ، وانه من أعظم المطالب في الحياة ، وان من جلس في حلقة العلم عند أهل العلم جميعا هو أفضل ممن تنفل ، ومن يصلي ومن يقرأ القرآن وحده .

وأن من طلب مسالة ليعمل بها ، ويرفع الجهل عن نفسه فهو أحسن من أن يركع سبعين ركعة.

واللم له وسائل ، فلا يكفي القراءة وحدها ، ولا يكفي الجلوس عند العلماء ، ولا يكفي حضور الدروس والمحاضرات ، بل تجمع الجميع : التدبر والحفظ والجلوس مع العلماء ،

ولو كانوا اقل منك علما وبصيرة ، فإن الله يمنحك بالجلوس في مجالس الذكر والعبادة فتحـــا عظيما ، حتى يقول معاذ في سكرات الموت : ما كنت أحب الحياة إلا لمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر .

وكان معاذ يجلس في حلقة بعض الناس الذين هم اصغر منه علما واقل فقها ؛ ليفتح الله عليه من المعارف.

فعلى المسلم أن يحرص على طلب العلم ، وان يقوي علمه ومطالعته ، وان يكون عنده وسائل عديدة في العلم .

* *

الغريق

قال سبحانه وتعالى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأنتمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)} [البقرة] .

لا زال الحديث مع بني إسرائيل ، ولا زال الخطاب لبني إسرائيل ، حيث يحدثهم الله بنعمه عليهم فيناديهم قائلا :

أما نجيناكم من آل فرعون ؟

أما واعدنا موسى وأعطيناه التوراة لمصلحتكم ؟

أما عفونا عنكم ؟

أما فرقنا بكم البحر ؟

أما فعلنا وفعلنا ؟

فلماذا هذه الجرائم ؟ ولماذا هذه العظائم ؟

فهي – ولله المثل الأعلى – كأن تؤدب ابنك ، فتقول : أما علمتك ؟ أما بنيت لك بيتا ؟ أما اشتريت لك سيارة ؟

وفي هذه دروس أولها :

مجمل القصة أن موسى ، عليه السلام ، يقاتل قتالا بريا وبحريا ، وصراعا ميدانيا وعلميا ، يرسله الله أي فرعون في ديوانه ، وفي إيوانه ، وفي قصره،ويجعل معه أخاه هارون ؛ لأنهم أفصح منه لسانا ،وهو لا شك أفضل من أخيه .

وقال بعض المؤرخين بأن هارون أكبر منه بسنة ، ولكن الله اصطفاه دونه .

فقال له : {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)} ، فقال : {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25)} لأنهم أمر صعب وتكليف لا يحتمله .

تخيل انك راعي غنم ،ومعك عصا تهش بها على غنمك ، ثم تكلف بالـــدخول علـــى طاغية من طغاة الدنيا ، هو فرعون حاكم مصر ، وحرسه كما قال أهل العلم : ستة وثلاثون ألفاً ، منتشرون في كل مكان ،بجوار القصر وخارجه وداخله.

قال : {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26)} ما أحسن الدعاء ! الله هو الذي ألهمه أن يدعو بهذا الدعاء ، {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27)} يا رب أنت تعلم أن لساني يتلعثم فحله لي .

قال الحسن البصري : رحم الله موسى ، ما سأل إلا أن تحل عقدة واحدة من لسانه .

وسبب طلبه من الله أن يحلل هذه العقدة ؛ كما قال موسى : {يَفْقَهُوا قَوْلِي} ليفهموا قوله ويفقهوه ، ولم يقل : اجعلني أعظم خطيب في مصر ، ولا أفضل متحدث في مـــصر ، ولكن {يَفْقَهُوا قَوْلِي} فقط لأبلغ الرسالة.

{وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29)} يساعدني ، ويكون من أهلي ؛ لأنهم لو كان من غير أهلي ربما كان حاقدا أو حاسدا .

ثم عينه باسمه ؛ لان أهله كثيرون ، كبار وصغار وأبناء عمومة وأقارب فقال : {هَارُونَ أَخِي(30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَـــيْ نُـــسَبِّحَكَ كَـــثِيراً (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (35)}.

فجاء الجواب مباشرة (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36)) لم يقل سؤالاتك ، لأنها سؤال واحد في علم الله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أراد شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }[يس : 82]

{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37)} فبدأ اله من هذه الآية يذكره بشريط حياتـــه ، وبتلك النعم التي أسداها له في الماضي لعله يتذكرها ولا ينساها ، فيشكر ولا يكفر .

لما ذهبا واصبحا في عرض الطريق أوصاهما الله بأدب الدعوة ، فقال : {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)} انتبهوا من الخبيث لينوا في الخطاب ، وعليكم بالأســـلوب السهل ، والله يعلم في علم الغيب أن فرعون لا يؤمن فهو من أهل النار .

لماذا؟ {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[الأنفال:23]

فيقول موسى وهو في الطريق وفرائصه ترتعد ، فهناك أمامه سيوف ورماح وخناجر ، وجيش

وأسطول ، وفرعون وهامان وقارون ،فقال هو وأخوه : {قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى} (طــه:45) أي : أن يستعجل بالعقوبة أو أن يطغى في الحكم.

قال الله – وما احسن العبارة – : { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} (طــه: من الآية46) .

لا إله إلا الله ! انتم في الإيوان ،وعلمي معكم .

أنتم في الصحراء ، وأنا معكم بعلمي وإحاطتي .

أنتم في البحر وأنا معكم بعلمي {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [المجادلة 7] الله معكم بعلمه و إحاطته وشهوده.

ألزم يديك بحبل الله معتصما *** فانه الركن إن خانتك أركان

ثم كان اللقاء التاريخي المشهود بين فرعون رئيس الضلالة ، وبين موسى كليم الله ، فكان ما كان من إظهار الحجة أمامه ، ومشاهدته لمعجزة العصا واليد .

ففكر وقدر ، فاختار المبارزة في الميدان أمام الجموع الهائلة والحشود الضخمة ، لتكون النهاية الفاصلة : إما الهزيمة ، وإما الظهور في الأرض .

فتواعدا ضحى يوم الزينة ،وهو يوم العيد الأكبر عندهم .

فجاءِ السحرة من كل مكان تلبية لسلطان الزمان ، وربهم الأعلى فرعون ، واصطفوا متهيئين للانقضاض بسحرهم على عصا موسى ؛ التي سمعوا بها ، وما رأوها ، وظنوها كحبالهم التي معهم .

فاختار موسى أن يلقوا هم بالأول لكي تكون الخاتمة له ، وهذا من حكمته أن يجعلهم يخرجوا ما في كيدهم ،وآخر ما عندهم من حيل ومغالطات.

ثم يأتي هو فيقصم ظهرهم بعد أن عرف منتهاهم .

فألقوا حبالهم ، فكانت تتراقص كالحيات ، وهذا أقصى ما لديهم أن يجعلوا الحبال تتراقص ويسحروا أعين الناس بها .

فألقى موسى عصاه بعد أن داخله شيء من خوف طبيعي ينتاب البشر لما رأى حياتهم الكثيرة .

فقال له تعالى : {لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} (طـه: من الآية68) الأعلى مكانة ، والأعلى حجة وغلبة .

فألقى العصا ، فأخذت تلتقم سحرهم وحبالهم واحدة تلو الأخرى ، فدهش السحرة ؛ لأنهم لم يروا في حياتهم منظرا كهذا ، قد خبروا السحر وعلموه ، ولكنهم في حياتهم كلها التي ضاعت بين تلكم الخزعبلات لم يشاهدوا كمثل هذا اليوم .

فعلموا انه ليس بسحر ، وإنما معجزة من رب الأرباب .

فخروا سجدا لله رب هارون وموسى.

فكانت النهاية الأليمة لفرعون وحزبه ، عندما انهارت على رؤوسهم الحيل والتدابير .

فلما سقط الخيار الجدلي ، كان لا بد عند فرعون أن يختار الفصل والحسم العسكري ، أمر بمطاردة موسى وقومه بعد أن تشاور مع وزرائه ، فأتوه بذلك لكي لا يكسب مزيدا من الناس حوله .

فخرج فرعون بجيش قوامه كما يقال ألف ألف ، وأما موسى فلم يكن معه إلا بني إسرائيل من الأطفال والنساء وقليل من الرجال ، ولكن الله معه.

فلما بلغ موسى وقومه البحر رأوا عجاجة في السماء ، فالتفتوا فإذا فرعون وجيشه ، وقد اقتربوا منهم ، فجزعوا وهلعوا من الموقف ، فالبحر أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم .. فأين المفر .

أما موسى فقد علمه الله طيلة تلك السنين انه ناصره في كل موقف .

فأصبح هذا عنده عقدية ويقينا فقال : {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)} أي : لن يضيعني في آخر الجولة بعد أن كان معي سابقاً.

فاقترب موسى من البحر وضربه بعصاه انفلق ، وأصبح كالجبل العظيم ، وحسر عن القاع وبنو إسرائيل ينظرون مبهوتين دهشين من هذا المنظر .

فأمرهم موسى بالدخول في البحر والمضي ، بعد أن جعله الله طريقا يابسا ، فسلكوه وهم لا زالوا في عجبهم .

وأما فرعون فانه اقترب من البحر و لم يعثر على موسى وقومه ، وإنما شاهد هذا المنظر الغريب الذي يشاهده لأول مرة ، فتقهقر في البداية .

وفي هذا الموضع يورد المفسرون بعض الأخبار الإسرائيلية التي لا باس بالاستئناس بها؛ لأنها لا تعارض نصا عندنا ، وإنما هي من جملة الأخبار .

قالوا : إن فرس فرعون رأى بغلة في البحر ، قيل : بغلة كان يركبها جبريل فأرادها ، لأن الفرس يهيج عند رؤية البغلة ، فاقتحم بفرعون البحر ، فتبعه الجنود لأنه قائدهم ، فلما اكتملوا في وسط البحر أنصك عليهم واضطرب ، فقتلوا جميعا جزاء نكالاً.

فقال فرعون في اللحظات الأخيرة : {آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ} [يونس :90] .

ولكن لم ينفعه ذلك {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)}[يونس 91] فلفظه البحر جثة ميتة ليراها من خلفه ، ويعلموا انه رجل حقير لا يستحق أن يجعل ملكا ، فضلا عن أن يجعل ربا ألهاً .

فقال تعالى مذكرا بني إسرائيل بهذه النعمة العظيمة عندما اهلك عدوهم الطاغية فرعون وآله وجنوده {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [البقرة : 49] .

والنجاة معنوية وحسية :

فالحسية أن تنجو من العذاب ، ومن السجن ، ومن المرض.

وأما المعنوية فان تنجو من الفسق ، ومن المعصية ، ومن المعتقدات الباطلة.

يقول حسان ن رضي الله عنه ، في هجو الحارث بن هشام ، الذي كان من سادات قريش:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني *** فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم *** ونجا بفضل طمرة ولجام

أي : انه فر يوم بدر على خيل له ، وترك أهل بدر من المشركين يقتلهم المسلمون ، فلم يدافع عنهم .

وقال معاوية ،رضي الله عنه :

نجوت وقد بل المرادي سيفه *** من ابن أبي شيخ الأباطح طالب

أي :أن الله نجاني يوم مقتل علي ، رضي الله عنه ؛ لأن الخوارج كان في مخططهم أن يقتلوا عليا ومعاوية وعمرو بن العاص ، رضي الله عنهم جميعا ، ولكنهم لم يستطيعوا إلا قتل علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، لحكمة قدرها الله .

فقال معاوية هذا .

قوله :{ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ} [يعني: تلقون منهم شدة ومشقة وعنتا ، وهو اشد العذاب لا اقله .

يقول عمرو بن كلثوم في ((معلقته)):

إذا ما الملك سام الناس خسفا *** أبينا أن نقر الخسف فينا

يقول هذا عندما ذهب هو وأمه إلى عمرو بن هند ، فقال أم عمرو بن كلثوم لأم عمرو بن هند : ناوليني هذا الطبق ، تريد إذلالها .

فرفضت ، فضربتها كفا على وجهها ،فصاحت تنادي ولدها وتولول ، فقام ابنها وقتل عمرو بن هند ،وقال معلقته في تلك الساعة .

فكان الإسرائيليون خدما عند أهل مصر في ذلك الزمان ، يقومون بالأعمال الحقيرة عندهم ؛ من كنس وطبخ وتحضير للطعام وهكذا .

{يذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } (البقرة: من الآية49) أي : بعد أن علم فرعون بواسطة السحرة ، انه سيقتل في مصر على يد طفل ذر لبني إسرائيل يولد بعد ذاك الزمان .

فأخذ لغبائه يقتل كل ولد يولد لبني إسرائيل ، ولكن الله تعالى بإرادته غلب إرادة هذا السفيه ، فجعل الله موسى يتربى في قصر فرعون إذلالا له وتحقيرا .

{ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} (البقرة: من الآية49) ، أي : نقمة شديدة حلت بكم ، فلا تنسوها ولا تنسوا نعمة الله إذ نجاكم منها.

ولكنهم نسوا واعرضوا ، فلا زالوا في سخط من الله إلى اليوم

وفي هذا الدرس دروس وعبر :

أولها : أن اعتصامنا بلا اله إلا الله ، فلا اله إلا الله من اجلها الكتب نزلت ،ومن اجلها الرسل أرسلت ، ومن اجلها الدنيا دمرت خمس مرات ، ومن اجلها أقيمت المعالم ، وبثت .

الأجيال ،وبذلت الأموال ، ورفعت السيف ، فلا اله إلا الله لا بد أن تسيطر على كل واحد منا ، على الملك ، على الأمير، على الوزير ، على العالم ، على القاضي ، على المسؤول ، لا بد أن يعتقد في ضميره أن لا إله إلا الله على الصحفي يوم يكتب ، على الشاعر ، يوم ينظر ، على الأديب يوم يتوج أن يكون عبدا لله ، وإذا لم يفعل ذلك فسوف يكون من أعداء الله ومن المحادين لله .

والقضية الثانية : أن الدين يكون بالصلاة ، ولا صلاة إلا بدين ، ولا دين بغير صلاة.

والقضية الثالث : أنا إذا لم نجعل في أذهاننا الإيمان باليوم الآخر ، فوالله لا نعيش في سلام ولا أمن ، ولا في استقرار ولا في طمأنينة ، لأن الذين نسوا اليوم الآخر تقاتلوا ودمروا بعضهم ، وأطلقوا صواريخهم وقتلوا الآمنين والنساء والأطفال ودمروا البيوت ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

والقضية الرابعة: أن الله ، عز وجل ، ينصر أولياءه ، ولو ظهروا على الساحة انهم مهزومون ، أو انهم قليلون ، أو انهم مضطهدون ، فالنصر معهم والعاقبة لهم .

والقضية الخامسة : أن الله ، عز وجل ، يطلب من العبد أن يحفظ النعم والأيادي ، وان يتذكر المعروف ، وان يتذكر الجميل .

والقضية السادسة : أن على الداعية أن يعرف مداخل القلوب ، وان لا يكون عنيفا في أسلوبه مجرحا للشعور منتهكا للقيم.

دخل أحد الأعراب على هارون الرشيد ، الخليفة العباسي الكبير ، فقال الأعرابي : يا هارون .

قال : نعم .

قال : إن عندي كلاما شديدا قاسيا فاسمع له

قال : والله لا اسمع له .

قال : و لم

قال : لان الله أرسل من هو خير منك إلى من هو شر مني ، قال : {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) }.

فأسلوب الأدب ومراعاة الشعور ، و إقامة حقوق الناس مطلوبة في الـــدعوة ليـــصل الداعية إلى القلوب .

والقضية السابعة : أن لا خوف على المسلم ، فالنفوس بيد الله ، والأرزاق في خزائن الله ، فهو الذي يحيي ويميت ، وهو الذي يغني ويعدم ،وبيده مقاليد الأمور سبحانه وتعالى .

هذا درس من دروس التوحيد ؛ لأن أغلبية سور القران دائما تحلق بنا مع موسى ، ولا تكاد تقرا سورة في الغالب إلا وتسمع {وَلَقَدْ أرسلنَا مُوسَى}[هــود 96] فسلام على موسى في الأولين ، وسلام عليه في الآخرين ، وشكر الله سعيه يوم رفع لا إله إلا الله .

وأما فرعون ، وآل فرعون ، حالهم كما ذكر المولى ، عز وجل : {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر : 46] .

* *

المناظرة

يقول تعالى : { وَإِذْ قَالَ إبراهيم لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [الأنعام : 74] إمام التوحيد يريد أن يثبت التوحد أولا ، وهو قد أثبته في نسه قبل أن يثبته لأبيه ثم يثبته للناس .

إمام التوحيد يعيش صراعا رهيبا في نفسه ، حتى يعلم أن لا إله إلا الله .

والله ، إذا أراد أن يرسل رسولا من الرسل ابتلاه بالمصائب والأزمات ، حتى يعلم أن لا إله إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا محيي ولا مميت إلا الله .

مكث صلى الله عليه وسلم يذوق التوحيد ، ويتجرع التوحيد من صغره ، فلما بلغ الأربعين انزل الله عليه {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد : 19] .

يقول أهل التفسير : خرج إبراهيم ، عليه السلام ، إلى البحر وجد جيفة حيوان قد ألقيت على الشاطئ ، فأتت الذئاب والوحوش والكلاب والطيور تفترسها.

فوقف متأملا وقال : سبحان الله ، أيعيد هذه الله بعد أن تأكلها الطيور والوحوش؟ ثم التفت ورفع يديه وقال : {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [البقرة : 260] .

هل شك في القدرة ؟ وقدرة الواحد الأحد ثابتة وهو يعرف ذلك ، وهو الذي علم الناس بان الله قدير ،وهو الذي أتى بهذا العلم(علم التوحيد الخالص).

عند البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:((نحن أحق بالشك من إبراهيم)) [13].

ولأهل العلم معنيان في هذا الكلام منه صلى الله عليه وسلم :

1- المعنى الأول : لو كان إبراهيم يشك ، لكنا نحن أكثر منه شكا ؛ لأنهم ارفع منا إيمانا .

2- والمعنى الآخر : انه لا يسلم من الشك أحد حتى نحن ؛ لأن إبراهيم وهو أفضلنا قد انتابه شيء منه ، والأول اصح وأولى .

---

[13] أخرجه البخاري (3372) ، ومسلم (238) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

قال : {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [البقرة : 260] بعـــد أن أصـــبحت في بطـــون الوحوش والطيور والعجماوات والكلاب والزواحف .

قال الله ، عز وجل : { أو لم تؤمن } ؟

أفيك شك من لا إله إلا الله ؟ ومن قدرة القدير ؟ وقدرة الواحد الأحد ؟ الذي يقول فيها الإمام مالك : تعدد الأصوات والنغمات واختلاف اللغات يدل على قدرة الله .

وقيل لأحدهم : ما دليل القدرة ؟

قال : نقض العزائم .

أي : انك تعزم على أمر ، ثم ينق عزيمتك . مثلا : تصمم على السفر ثم يلقى ســـفرك لسبب أو لآخر.

يقول أبو العلاء المعري ، وهو من أحسن أبياته — ولو أن له أبياتا قبيحة –:

تقضون والفلك المسير ضاحكا *** وتقدرون فتضحك الأقدار

يقول : انتم في الأرض خفافيش تقدرون ، وتتوقعون ، ويأتي الله فيلغـــي تقـــديراتكم ويفنيها {أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ }[الأنعام : 62] {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّـــكَ صِـــدْقاً وَعَدْلاً} [الأنعام : 115].

قال ابن كثير : صدقا في الأخبار ، وعدلا في الأحكام

وهذا التعريف من الدرر ، وهذا هو الإكسير والمعنى القليل .

(قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)

يعني : أريد أن يطمئن القلب ، وهو دليل على أن درجة الإحسان أعلى مـــن درجـــة الإيمان ، وان من رأى الشيء كان أكثر يقينا ممن سمع به .

يقول الشاعر أبو الطيب المتنبي:

خذ ما رأيت ودع شيئا سمعت به *** في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

وهذا مثل ما يذكر أن علي بن أبي طالب قال : والله ، لو كشف لي الله الغطاء، فرأيت الجنة والنار ، ما زاد ما عندي من إيمان مثقال ذرة . يعني : انه بلغ درجة اليقين .

يقول حافظ الحكمي عنه :

هو رسوخ القلب في الإيمان *** حتى يكون الغيب كالعيان

ما دام بان هناك جنة ، فقد صدقوا بذلك وأيقنوا ، وهذا كحال الصحابة الذي يقول أحدهم في معركة أحد : (إياك عني يا سعد ، والذي نفسي بيده أني لأجد ريح الجنة من دون أحد).

هذا هو اليقين ، لا علم الدكتوراه التي جعلت الإنسان في القران الخامس عشر لا يعرف يصلي جماعة في المسجد ، ثم يقول : هذا هو العلم !! {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخرة هُمْ غَافِلُونَ } [الروم : 7] .

قال : (ولكن ليطمئن قلبي) فقال له الله : {فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إليك} (البقرة: من الآية260) وسبق أن قلت : لا يهمنا استطرادات المفسرين في ذكر نوع الطيور ، هي بط أو حمام أو إوز ؟ إنما هو طير ، ولو كان هناك مصلحة ، لكان سمي لنا الطير .

{فَصُرْهُنَّ} قيل : قطعهن ، فقطعها إبراهيم وخلطها ونثرها على أربعة جبال ونزل في وسط الوادي .

قال :{ ثم ادعهن } {ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً} (البقرة: من الآية260) فترل فدعاهن ، وأحياها الله ورد الأرواح فيها ، فكان إبراهيم يقدم الرأس للطائر لا يقبله ؛ لأنه ليس رأسه ، ويقدم الرجل للطائر فلا يقبلها ؛ لأنه ليست رجله.

ثم قال : { وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة: من الآية260) .

لماذا قال الله قبلها في قصة صاحب الحمار : {أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: من الآية259) ، وهنا قال : (عزيز حكيم).

قال أهل العلم : لأن إبراهيم هو أستاذ التوحيد وصاحب العقيدة ، وهو لا يصل إلى أن لا يعلم أن الله على كل شيء قدير ، ولكنه بعد القصة ازداد علما بعزة الله وحكمة الله فقيل له : {وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة :260] .

فذهب إبراهيم إلى أبيه ، وهو أول ما يدعو أباه .

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ } (الأنعام: من الآية74) قيل : انه ليس بأبي بالنسب ، والصحيح انه أبوه بالنسب .

قال : { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً} (الأنعام: من الآية74) هذه القضية الكبرى .

إن من مبادئ الجدل : انك إذا أردت أن تهدم شيئا أن تورث الشك في نفس من تجادل.

فإذا أردت أن تجادل معتنقي النصرانية مثلا ، فتقو لهم : هل الله ثالث ثلاثة ؟ هل يعقل أن الواحد ثلاثة ؟ تعالوا بنا إلى الحساب ، هل سمعتم أن الواحد يصبح ثلاثة ؟ من هنا تهدم عقائدهم .

قال : { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً} أتتخذ الحجارة آلهة ؟ فهل هي تسمع أو تعقل أو ترى ؟ { إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}.

نعم ! يطلب من الداعية أن يكون حكيما ولا يواجه بعنف ، لكن إبراهيم هنا استخدم الأسلوب المناسب للموقف المناسب ، وهذا لا ينافي الحكمة ، فان الله لما أرسل موسى وهارون قال :{ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً } مع العلم أن موسى يقول لفرعون :{ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً } [الإسراء : 102] ، لأنه سمع اليقين والعلم والخبر ولكنه تكبر ، فاستدعى ذلك الإغلاظ معه.

كحال إبراهيم ، عليه السلام ، هنا.

{وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام : 75]

ما الذي يدل على الله ؟ الشجر والزهرة والغدير والسماء والأرض .

وفي كل شيء له آية *** تدل على انه واحد

كلها تشير على الوحدانية {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[يونس : 101] الرابية : الهضبة ، والتل والماء كلها تدل على الله .

يقول علماء الكلام : لا بد قبل أن تقول اشهد أن لا إله إلا الله ، واشهد أن محمدا رسول الله ، فانه عليك أن تتفكر بالنظر والاستدلال حتى تشهد .

وهذا خطأ عند علماء السنة ، ونبه عليه الشيخ عبد العزيز بن بـــاز ، رحمـــه الله ، في تعليقه على ((فتح الباري)) وقال : لا ، بل الواجب أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وتشهد أن محمدا رسول الله ، لا النظر والاستدلال .

قال صلى الله عليه وسلم ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـــه إلا الله و أني رسول الله))[14].

وقال سبحانه : {وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْـــأَرْضِ} وهـــذا دأب الأنبياء ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ما كان يقرأ ، ولا يكتب ، لكنه كان يقرأ في الكون وفي كتاب الكون ، وقيل في قوله تعالى : {اقْرَأْ} وهي أول سورة نزلت عليه ، أي : اقرأ في الكون.

ولذلك يكثر القران من التذكير بآيات الله في الآفاق وفي الأرض {أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَـــى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)} [الغاشية]

(وليكون من الموقنين) هذه درجة الرسوخ واليقين .

واليقين له شروط:

منها : أن تتدبر آيات الكون .

ومنها : أن تكثر من العبادة ،وهو طريق أهل السنة ؛ لان المناطقة لم يكونوا متعبدين ، بل كان يهم فجور .

والمعتزلة من افجر الناس ، حتى أن بعضهم كان ممن يشرب الخمر .

قال : {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً}.

جن معناها : ستر ، وإنما سمي الجن جنا ؛ لأنهم يستترون .

وقال عمر بن أبي ربيعة:

وكان مجني دون ما كنت اتقي *** ثلاث شخوص كأعيان ومعصر

---

[14] أخرجه البخاري (25) ، ومسلم (22) من حديث ابن عمر ، رضي الله عنهما .

قال : {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً} هذا أسلوب القران وهذا إبداع القران ، من يستطيع أن يصوغ مثل هذا الكلام ؟

الله وحده جل جلاله .

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً} فلا تظهر الكواكب إلا في الليل ، وإبراهيم أراد أن يجري الحوار أمام الناس ، وهو يدري أن الله هو الواحد الأحد ، وهو النافع الضار ، كـــان يريد أن يلفت أنظارهم إلى أن هذه الكواكب لا تنفع ولا تضر ولا تدبر أمرا هي لا تستحق العبادة.

{هَذَا رَبِّي} يقول إبراهيم : الكوكب ربي ، فسمعه قومه سكتوا ما أنكروا ، لأن أمته كانت تعبد الكواكب ، وتعبد الشجر والحجر ، وتعبد صبرة التمر .

{فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} أفل : أي : غاب .

لماذا قال هذا ؟ لأنه يريد أن يثبت لهم أن الله حي لا يموت {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} [الفرقان: 58] وهذا سر الأسرار ، بان الحي الذي لا يموت هو الله .

أما غيره أحياء يموتون.

{فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} فكأن قومه وافقوه وسكتوا ، فما دام إبراهيم لا يحب الآفلين فقد أصاب إبراهيم .

{فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي} [الأنعام] هذا في الليلة الثانية .

{فَلَمَّا أَفَلَ} قال : وهذا أيضا لا يصلح للعبادة ؛ لأنه يختفي فلا يراقب عباده .

{قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} .

{فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكبر} لأنه يبحث عن الكبير ، ولـــذلك من صفات الواحد الأحد انه الأكبر .

وكانت العرب تأخذ أكبر الحجارة لعبادتها!

{فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} .

أخيرا قال : هذه كلها خزعبلات ؛ لأن قومه يعبدون الكوكب والشمس والقمـــر ، فلما أفلت جميعها صرف نفسه عن هذا وقال : {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ الـــسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)} الحنيف : المائل من الشرك إلى التوحيد.

وهذا هو الذي أتى به صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يحـــب كـــل الأنبياء والرسل ،كان يحب إبراهيم حبا خاص {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبراهيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـــذَا النَّبِيُّ } [آل عمران : 68] .

ويقول في حديث الإسراء : ((ورأيت إبراهيم عليه السلام وكان أشـــبه النـــاس بـــه صاحبكم))[15] أي : هو صلى الله عليه وسلم .

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} الآن بدأت المناظرة .

{قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} يقول : أنا اهتديت والحمد لله ، ولكنكم تريدون أن تزيلوني عن هذا المعتقد الحق ، وهذا من الخبث بأنهم لم يكتفوا بضلالهم ، بل يريدون أن يضلوه معهم كشأن بعض الناس الذين يريدون غواية الصالحين.

{وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً} سبحان الله !.

بعض أهل العلم له تعليق على هذه الآية ؛ بأن إبراهيم يعلم أن الله لو شاء لجعله مثلهم ،و لم يهده إلى التوحيد ،ولكنه عصمه سبحانه وتعالى.

معنى ذلك : أن العبد مفتقر إلى الله مهما بلغ في الهداية .

{وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أحد أبدا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَـــشَاءُ} [النور :21] .

والله ، سبحانه وتعالى ، إنما عصم الرسول صلى الله عليه وسلم من القتـــل بآيـــة في سورة المائدة هي: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة : 67] فهو العاصم سبحانه من كل شيء .

ثم قال إبراهيم :{ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} (الأنعام: من الآية80).

---

[15] أخرجه ملم (172) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

و أهل السنة والجماعة يقولون : (يعلم الله) ، ولا يقولون (يعرف) ؛ لأنه ليس من الألفاظ الشرعية أن تقول : (عرف الله هذه المسالة) مثلا ، بل تقول : (علم الله هذه المسالة ؛ لان العرفان يسبقه جهل ، فهو علم نسبي مؤقت ،أما علم الله هو مطلق لا محدود.

وقد علم الله الغيب واختص به سبحانه دون غيره فقال {قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} [النمل : 65] .

وقد جاء في السنة والآثار عدة حوادث تبين سعة علمه تبارك وتعالى ، وقد مـر بنـا بعضها في دروس سابقة ، كقصة عمير بن وهب الذي اجتمع مع صفوان بن أمية عند البيت يخططان لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخبر الله رسوله بمخططهم ، فلما جاء عمير في المدينة اخبره صلى الله عليه وسلم بما تم بينهما وهما في مكة وهو في المدينة فأسلم عمـير رضي الله عنه .

وهكذا في قصة خولة بنت ثعلبة التي اشتكت زوجها ، فان عائشة كانت في طـرف البيت ، لكنها لم تعلم حرفا مما كانت تقوله المشتكية للرسول صلى الله عليه وسلم ، فانزل الله {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ} [المجادلة : 1] .

قال إبراهيم : {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [الأنعام : 81] أي : أن المؤمن لا يخاف هذه الخرافات الوثنية في كل زمان ومكان .

قيل للإمام احمد : أيخاف المؤمن ؟

قال : لو اخلص لما خاف .

ولذلك لم نسمع أن الرسول صلى الله عليه وسلم تأخر في معركة ما –وحاشاه ذلك- ؛ لأنه أعظم المخلصين والموحدين.

يقول علي : كنا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس نتقي برسول الله صلى الله عليـه وسلم .

قال إبراهيم : {وَلا تَخَافُونَ إنكم أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُـلْطَاناً فَـأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنعام: 81] . أي : إنكم انتم أولى بالخوف مـني ، لأنني أنا موحد وأنتم مشركون .

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }[الأنعام : 82] ، لما نزلت هذه الآية قال الصحابة : اينا لم يظلم نفسه يا رسول الله ؟ .

قال : ((ليس ما تظنون ألم تسمعوا قوله سبحانه : {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم)}[لقمان : 13] [16] ؟

أي : أن الظلم في هذه الآية المقصود به الشرك لا المعاصي والكبائر التي قد يعاقب بها الإنسان في الآخرة ، لكنه يكون من أهل الجنة أخيرا .

وبهذا انتهت مناظرة إبراهيم مع قومه ، حيث أبطل لهم عباداتهم وطقوسهم الوثنية ، وأثبت لهم التوحيد الخاص ، وأنه مصدر عزة المؤمن وشجاعته .

وأنهم الأحق بالخوف منه والحذر من عذاب الله في الآخرة أن استمروا على شركهم .

فثبت بهذا أن (التوحيد أولا) هو بداية الرسل وانطلاقتهم ، لا كما يظن بعض المجتهدين منا ، حيث يقدمون أولويات أخرى غيره ، فلعلهم أن يراجعوا مسلكهم في قادم الأيام.

الذبيح الأول

عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : أول من تمنطق من النساء : هاجر ، وذلك لتخفي أثرها عن سارة لما هاجر بها إبراهيم ، عليه السلام ، إلى مكة ، فنزل بها مكة قريبا من رابية وهو مكان البيت اليوم ، فكانت هذه الرابية مرتفعة عن الأرض .

فلما أنزلها ، عليه السلام ،هناك ، كان معها جراب من تمر ،وسقاء من ماء ، ومعها ابنها إسماعيل ، فتولى وتركهم .

فالتفتت إليه هاجر ، وهي مولاة ، وقالت : لمن تتركنا يا إبراهيم ؟

فلم يجبها بشيء.

فقالت : آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

[16] أخرجه البخاري (32) ،ومسلم (124) عن عبدالله بن مسعود ، رضي الله عنه .

قالت : إذا لا يضيعنا ربنا .

فلما اختفى وراء الجبل التفت ، ودعا اله عز وجل ، ورفع يديه ، وقال : {رَبَّنَا إِنِّــي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إليهم وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: 37] ثم تولى عنهم وتركهم .

فنفد الماء ، ونفد الطعام من التمر ، عن هاجر وابنها ، فذهبت لترى في جبال مكة أين تجد الماء .

قال ابن عباس : لكأني بها تسعى بين الجبلين ، يعني : بين الصفا والمروة سبعة أشواط. فطافت سبعة أشواط فهو طوافنا اليوم ، فعادت إلى مكانها ، وأخذ ابنها يضرب الأرض برجله من شدة العطش.

فنزل ملك من السماء – قيل : جبريل ، وقيل : غيره – ففحص بجناحه فخرج الماء ، فأخذت هي تعدل الماء وتقيم التراب حول الماء وتقول : زم زم .

وهذا من عادة قبائلهم أنهم إذا اشتغلوا يتسلون بالكلام .

قال صلى الله عليه وسلم : ((رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لصارت عينا معينا))[17]

ثم نزل هناك ركب من جرهم ،وجرهم قبيلة انتقلت إلى مكة ، وهي من القبائل العربية التي سوف يتزوج منهم إسماعيل .

نزلوا في طرف مكة ، فرأوا غرابا عائفا فوق ماء زمزم.

فقال هؤلاء الركب : إن هذا الطائر معه الماء .

فاقتربوا ، فلما رأوا هاجر ، قالوا : ننزل حول الماء .

قالت : لا .

فاصطلحوا معها أن ينزلوا على حسن الجوار .

فنزلوا ، فأعطوها الطعام ، وأعطتهم الماء .

---

[17] أخرجه البخاري (2368 ، 3364) عن ابن عباس ، رضي الله عنهما .

فلما شب إسماعيل ، عليه السلام ، تزوج منهم .

وكان شابا ظريفا عاقلا ، قد آتاه الله الحكم صبيا ، فأصبح أرحامه قبيلة جرهم .

فلما شب فيهم ، عليه السلام ، أتاه أبوه بعد حين يزوره ، فوجد امرأة إسماعيل ، عليه السلام ، وهي في البيت ، فطرق عليها ، وهو شيخ حسن الهيئة ، عليه هندام الوقار والسكينة ،وعليه بشريات التوحيد.

فقال : أين زوجك ؟ وهو ابنه ، ولكن لم تعرفه .

قالت : خرج يطلب لنا صيدا .

قال : كيف انتم ؟

قالت : في حالة ضيقة وفي شر حال ؟

قال : إذا أتى زوجك فأقرئيه مني السلام ، ومريه أن يغير عتبة بابه أو بيته .

فأتى إسماعيل فسألها : هل أتاكم من أحد؟قالت : أتاني شيخ حسن الهيئة ، سألنا عن هيئتنا وطعامنا ، وأمرني أن أقرئك منه السلم ، وان تغير عتبة دارك

قال : ذلك أبي ،ويأمرني بفراقك ، فالحقي بأهلك .

ثم تزوج زوجة أخرى صالحة ، فأتاهم إبراهيم يزورهم مرة ثانية .

فخرجت المرأة .

قال : أين زوجك ؟

قالت: خرج يطلب لنا الصيد .

قال : كيف حالكم ؟

قالت بأحسن حال ، والحمد لله .

قال : إذا أتى زوجك فأقرئيه مني السلام ، ومريه أن يثبت عتبة داره .

فأتى إسماعيل فأخبرته ن وقالت :يقرئك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة دارك.

قال : ذلك أبي وهو يأمرني أن أمسكك فانك زوجة صالحة[18] .

أول مسالة : زواجه ،علي السلام ، من سارة .

---

[18] أخرجه البخاري (3364) عن ابن عباس ، رضي الله عنهما .

كانت سارة امرأة صالحة جميلة ، تزوجها إبراهيم ، عليه السلام ، وعلمها التوحيد ، وأرضعها لبن لا إله إلا الله منذ الصغر ،فنشأت موقرة .

قال ابن كثير : أجمل النساء في العالمين سارة ومريم

وقيل : عائشة بنت الصديق ، رضي الله عنها وأرضاها.

هاجر إبراهيم ، عليه السلام ، بسارة ،فمر بملك من ملوك الدنيا جبار عنيد ، كان كل ما سمع بفتاة جميلة اغتصبها من أهلها .

فلما وصل إبراهيم بزوجته هذه ، وهو في الطريق سمع بها الملك ، فأرسل جنوده فأخذوا هذه المرأة الصالحة العابدة القوامة الزاهدة.

ولكن من يعتمد على الله ، ومن استحفظ بحفظ الله حفظه .

فتوجه إبراهيم إلى الله ، عز وجل ، ودعاه أن يحفظ زوجته.

فأخذوها من بين يديه ، فقال لها بينه وبينها : إذا قدمت على الملك وسألك عن نسبك ، فقولي : أنا أخت إبراهيم .

وصدق ، فإنها أخته في العقيدة والدين ، وأخته في النسب الأول ، فكلهم من آدم وحواء .

فوصلت إلى هذا الجبار ، ودخلت عليه ، فاقترب منها ، وهي متوضئة طاهرة .

فدعت الله عليه فجفت يده وجفت رجله .

قال : ادعي الله لي أن يطلق يدي ورجلي .

فدعت له .

فأتى يقترب .

فدعت عليه فجفت يده ورجله .

فاقترب ثالثة.

فدعت عليه فجف الثالثة.

فقال : أتيتموني بشيطانة ، اذهبوا بها .

فذهبوا بها أخدمها هاجر التي هي أم إسماعيل .

فقالت لإبراهيم : منع الله الفاجر واخدمنا وليدة [19] .

فقال لها إبراهيم لما عادت : والله ، لقد رأيتك منذ ذهبتي إلى الآن .

فلما اخذ هاجر أتت بإسماعيل فغارت منها سارة، والغيرة في طبيعة النساء ملاحظة ؛ كأن الغيرة ولدت مع النساء منذ خلق الله المرأة إلى اليوم .

فذهب إبراهيم بهاجر إلى مكة .

وسبحان الله ! كيف اختار الله مكة من بين بلاد الأرض وبلاد المعمورة لتكون مهبط الوحي ، وليكون منها الإشعاع الرباني والرسالة الخالدة ، وليتخرج منها أساتذة التوحيد ؛ الذين رفعوا علم لا إله إلا الله ، فهي بحق جبال تصهر الرجال بحرارتها ، وبشظف عيشها ، فتخرجهم رجالا يقودون عجلة التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فمكة مسقط رأس رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ، ومكة ولد فيها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد ، والصنف المختار من أصحاب رسول الهدى صلى الله عليه وسلم .

وصل إبراهيم ، عليه السلام، إلى مكة .

قالوا : كان البيت في رابية مرتفعة .

وقيل أن يأمره الله بالبناء اختار الله ذاك الموقع .

قال بعض أهل العلم : لأنها وسط الدنيا ، وقد اثبت العلم الحديث فيما سمعنا وقرأنا ، أن من صعد على سطح القمر رأى أن وسط الدنيا هو الجزيرة العربية أو ما يقاربها ، ووسط الدنيا هي الكعبة .

ولذلك سماها الله أم القرى ، فهي تبث الإشعاع في كل مدينة.

فلما وصل إبراهيم هناك وضع الأهل والمتاع وتولى إلى الله ، عز وجل ،واختفى وراء الجبل ، وابتهل إلى الله ، كما سبق .

تزوج إسماعيل ، كما مر ، من جرهم ، وجرهم هؤلاء ذكرهم زهير بن أبي سلمى يوم يقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله *** رجال بنوه من قريش وجرهم

---

[19] أخرجه البخاري (2217) ، ومسلم (2371) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

يمينا لنعم السيدان وجدتمـــــــا *** على كل حال من سحيل ومبرم

يمدح هرم بن سنان ، وقيس بن زهير لما تداركا عبسا وذبيان في حروبهم .

وفي أول زيارة من إبراهيم لإسماعيل ، كان قد بلغ إسماعيل مبلغ الصبيان ودرج علـــى الأرض ، فأحبه إبراهيم وشغف به وأصبح كالخليل لخليله .

قد تخللت مسلك الروح مني *** ولذا سمي الخليل خليلا

فأراد الله أن يخلص قلب إبراهيم من هذا الحب ، ومن هذا الابن له سبحانه وتعالى لأنه خليل الرحمن .

فلما وصل إلى مكة رأى فيما يرى النائم ا قائلا يقول له : اذبح ابنك .

فتعوذ بالله من الشيطان وتوضأ وصلى.

فرأى الرؤيا مرتين .

فعلم إنها رؤيا حق .

ولذلك قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى : (باب) رؤيا الأنبياء حق .

فقال إبراهيم لإسماعيل :{ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: 102] .

ويا لها من مصيبة !

ويا لها من مسالة شاقة على الأنفس !

ومثل في نفسك أن تؤمر أن تذبح بيدك وسكينك أحب أبنائك إليك .

ما هو شعورك ؟

وما هي عواطفك ؟

فقال إسماعيل في هدوء صبر وإيقان : {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات : 102] .

قال أهل التفسير : خاطبه بالأبوة في مقام الحنان حتى وهو يعتدي على روحه بأمر الله عز وجل .

{ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (الصافات: من الآية102) قالوا : ما أحسن هذا الاعتراض .

لم يقل : ستجدني من الصابرين ، وإنما قال : (إِنْ شَاءَ اللَّهُ).
فصبري بالله واتكالي على الله .
{فَلَمَّا أَسْلَمَا} الضمير يعود إلى إبراهيم وإسماعيل ،اسلم إبراهيم نفسه إلى الواحد الأحد ، وأسلم إسماعيل نفسه إلى الله سبحانه وتعالى .
{وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} قال أهل التفسير : ما استطاع أن يبطحه على ظهره فجعله على وجهه ليذبحه من قفاه .
لماذا ؟
خشية أن يرى وجه ابنه فتدركه الرحمة والرأفة فيعصي أمر الله .
{وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} قال أهل العلم : و لم يقل :أجلسه وأقعده ، إنما (وَتَلَّهُ) بقوة ليرى الله انه ينفذ الأمر بحماس وقوة .
وإبراهيم صاحب مواقف خالدة في القران ، فهو صاحب الروغتين : روغة الكرم وروغة الشجاعة {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } [الذاريات : 26] {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ }.
لان المسلم ينبغي عليه أن يأخذ أحكام الله ، وتنفيذ أوامر الله بالقوة .
أما البرود ، وأما الكسل ، وأما الخنوع ، فهو ليس من دين الله .
ولذلك يقول الله ليحيى : {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ }.
ويقول الله عن المنافقين : { وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى } .
فلما أرسل السكين عليه أتى لطف الله عز وجل ورحمته ، سبحانه وتعالى ، فما أصبحت السكين تذبح ، ومن عادة السكين أن تذبح ،ولكن حكمة الله عز وجل أن منعها من الذبح .
فالبحر يغرق ، ولكن قدرة الله منعته أن يغرق موسى عليه السلام .
والنار تحرق ، وهذه من سنن الله الكونية، ولكنها لا تحرق إبراهيم عليه السلام .
والسكين تذبح ، ولكن قدرة الله عز وجل تجعلها لا تذبح أبدا .
فمنعتها من عنق إسماعيل ؛ لأنه بريء طاهر عفيف.

فقال سبحانه : { وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} (الصافات:107)

(نزل عليهم من الجنة ، فأخذ السكين وذبح الذبح العظيم (الكبش) ورد السكين إلى نصابها .

فمدحه الله أبد الدهر وأثنى عليه وقال : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ} (الصافات:106) فهو بلاء خالد ، لكن خلد الله ذكره يوم قال : {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} (الشعراء:84) فرفع الله ذكره ابد الدهر .

فيأتي إبراهيم في المرة الثانية ليبني بيت الله سبحانه وتعالى ،وكان إسماعيل قد شب وأصبح فتى يستطيع البناء معه .

فقال له إبراهيم : يا إسماعيل إن الله يأمرني أن أبني البيت .

قال : وأمرك ربك ؟

قال : نعم ، وتعينني على ذلك .

قال : نعم ، أعينك عليه .

قال ابن عباس : كأني بإبراهيم ، وقد ارتفع على الجدار ،وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهو يضعها ويبني .

أتدرون ماذا كان نشيدهم الخالد؟

كانا يقولان : { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (البقرة: من الآية127) .

والفاجر يفجر ويعصي ويزني ، ويكذب ويغتاب ، ويقول : رحمة الله وسعت كل شيء !

فلما بقي مكان الحجر أمر الله ، عز وجل ، إبراهيم أن يبقي مكانه .

فالتفت إلى الحي القيوم ،ودعا أن يبارك الله ، عز وجل ، في هذا البناء .

فأتاه جبريل بالحجر الأسود أبيض كاللبن ، كالجوهرة البيضاء من الجنة ، فسلمه إلى إبراهيم وقال : ضع هذا الحجر في هذا المكان ليستلمه الناس .

قال صلى الله عليه وسلم :((نزل الحجر من الجنة ابيض من اللبن فسودته خطايا بـــني آدم))[20].

وصح عنه صلى الله عليه وسلم في حديث انه قال : ((إن لهذا لحجر لسانا وشـــفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق))[21].

فمن استلم الحجر الأسود أو قبله ، وهو صادق ومشتاق ومخلص ، انطق الله الحجـــر الأسود يوم القيامة بلسان ناطق يشهد لمن استلمه بحق في الحياة الدنيا .

والحجر الأسود له قصة في التاريخ ، فانه اعتدي على عرضه وعلى كرامته في عـــصر القرامطة ،يوم أن وفدوا من الإحساء إلى البيت العتيق ، ووفد معهم الفاجر (أبو سعيد الجنابي) وأخذ بسيفه يقتل الحجيج ، ويقول : يخلق الخلق وأفنيهم أنا .

يقول : إن الله يخلق الخلق وأنا أفنيهم .

ثم تقدم بدبوس من حديد في يد فقال : يا معشر المسلمين ، يا أيها الحمير ، تقولون إن الله يقول : (ومن دخله كان آمنا) ، نحن دخلناه الآن فأين الأمن ؟

فقال له بعض العلماء : هذا من باب الأمر لا من باب الخبر .

يعني : أن الله يأمرنا أن نؤمن البيت ، وأنت قد أخفته .

فتقدم بخنجر فطعم العالم فقتله ، ثم أتى إلى الحجر الأسود فضربه ثلاث ضربات بهـــذا الدبوس ، فانفلق منه ثلاث فلق .

وأخذوا الحجر ، واركبوه على سبعمائة جمل ، كلما مشى الجمل قليلا أصابه الجرب ، وأهلك الله الجمل فسقط الحجر من عليه ، فيركبونه على جمل آخر ، يموت الجمل ، الآخـــر حتى مات سبعمائة جمل .

ووصل إلى الإحساء ، وبقي معهم حتى اجتمع سلاطين الدولة الإسلامية ،ودفعوا مبلغ هائلا من الدراهم والدنانير والذهب حتى أعيد الحجر إلى مكانه .

ولله حكم في ترك هؤلاء الغوغاء يأخذون الحجر.

---

[20] حسن أخرجه احمد (2792 ،2935، 3038) ، والترمذي (877) ، وحسنه عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، وانر : ((المشكاة)) (2577).

[21] صحيح . اخرجه احمد (2394) ، والترمذي (961) ، وصححه ، وابن ماجه (2944) ، والدارمي (1839) عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، وانظر: ((المشكاة)) (2578).

وله حكم في الأحداث التي وقعت في التاريخ ، فهو الحكيم سبحانه {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء:23)

وبني إبراهيم ، عليه السلام ، البيت، ونزل ووقف عند المقام الذي نحن نصلي فيه اليوم.

فقال الله عز وجل : {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً } (البقرة: من الآية125) .

فوقف هناك ودعا الله كثيرا .

فأمره الله أن ينادي في الناس جميعا أن يحجوا إلى هذا البيت ،وان يأتوا إلى بيت الرحمن ، فبيت الرحمن جل جلاله فيه الهداية والنور ،وفي السماء الدنيا ببيت آخر كالكعبة يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ابد الدهر ، فيأتي غيرهم فيطوفون ... وهكذا .

فارتفع إبراهيم على جبل من جبال مكة فنادى في الناس .

قال ابن عباس : فسمعه الناس في أصلابهم {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يأتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ} [الحج 27-28].

{يَأْتُوكَ رِجَالاً } قالوا : أي أنهم مترجلين ماشين .

{وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} أي : على كل بعير ضامر من شدة السفر .

فعاد إبراهيم بعد ذلك إلى فلسطين لأمر يعلمه الله .

وأما إسماعيل فأقام هناك ، وتزوج من جرهم ، فهو جد رسولنا صلى الله عليه وسلم ، وفي حديث ضعيف في سنده كلام ، يقول صلى الله عليه وسلم : ((أنا ابن الذبيحين))[22] فالذبيح الأول هو إسماعيل الذي عرضه لذبح إبراهيم ، والذبيح الآخر هو عبد الله أبو الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة .

فان عبد المطلب لما جفت بئر زمزم نذر نذرا إذا اخرج الله الماء أن يذبح أحد أبنائه ، وكانوا عشرة منهم : عبد الله والحارث وحمزة وأبو طالب والعباس وأبو لهب .

فلما خرج الماء اقرع بين العشرة فخرج السهم على عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ففداه .

فأتى السهم الآخر فوقع على عبد الله ، ففداه بعشرين ، حتى وصل مائة ناقة ففداه بها.

---

[22] أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) (4048) ، وانظر : ((كشف الخفا)) (230/1) ، و((الضعيفة)) للألباني (331).

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم ابن الذبيحين .

والذبيح الأول على الصحيح هو إسماعيل ن لا إسحاق كما يدعي اليهود حسدا لنبينا أن يكون ابنا للذبيح المختار .

هذه لمحات عن قصة هذين النبيين الجليلين ، وبقي في حياة إبراهيم، عليه السلام ، عبر ومواقف ، كمحاجته مع النمرود ، وطلبه أن يرى كيفية أحياء الموتى من الله ، عز وجـــل ، وقد ذكرت هذا في مواضع أخرى .

* *

الكريم ابن الكريم

قصة يوسف فيها عبر وفوائد جمة لمن تأملها .

وفيها متعة وتشويق للنفس البشرية

فهي تحكي أطوار حياة نبي من أنبياء الله ، منذ الصغر إلى أن تقلد المنصب الكبير في عصره .

وفي هذه الورقات نقوم بجولة عجلى على مقطعين من مقاطع السورة نستلهم منها العبر والدروس النافعة لنا .

يقول سبحانه : {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رأيت أحد عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رأيتهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسان عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إبراهيم وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)} [يوسف] .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم))[32] .

دخل عمر ، رضي الله عنه ،مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد قاصا يقص على الناس من أخبار الجاهلية والأمم السابقة فقال عمر : من هذا ؟

قالوا : قاص يقص علينا .

فعلاه عمر بالدرة وقال : أتقص يا عدو نفسك والله يقول : {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } (يوسف: من الآية3).

ومن أحسن القصص : قصة يوسف ، عليه السلام .

وبطلها هو : يوسف صلى الله عليه وسلم الذي مر بأربع مشاهد:

1- مشهد الفراق لأبيه عندما فارقه أربعين سنة لم يشاهده فيها .

---

[32] أخرجه البخاري (4688،3382،3390) عن ابن عمر ، رضي الله عنهما .

2- ومشهد الفتنة مع امرأة العزيز التي تعرضت له ، وهي من أجمل خلق الله .
3- ومشهد السجن عندما سجن في ذات الله ،ومحص ليخرج برضوان الله .
4- ومشهد الوزراة والملك عندما اعتلى على مناصب القوة ومراكزها في عصره .

قال تعالى في أول السورة (الر) فمن هذه الحروف نتكلم .

ومن هذه الحروف نقول كلماتنا.

فيا أيها الفصحاء .. يا قريش اللسناء .. يا قريش البليغة . تعالوا فصوغوا من هذه الحروف قرانا ، كما صغنا قرآننا .

فالمادة موجودة والخام معروف.

ولكن هل تستطيعون ؟

لا !!! لن تستطيعوا ، { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا } (البقرة: من الآية24) .

ثم قال تعالى : { تلك آيات الكتاب المبين } كتاب بين واضح ، { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (يوسف:2) فيا من نام وما استيقظ ... استيقظ بهذا القران .

ويا من غفل و لم يصح ... اصح بهذا القرن .

ويا من فقد عقله ... أعقل بهذا القران .

ثم يقول ، تبارك وتعالى ، مقدما للقصة المدهشة التي ما سمع الناس بمثلها{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} (يوسف: من الآية3)، فأروع القصص وأصدق القصص هي قصص القران.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف:3). كنت أميا لا تقرا ولا تكتب .

كنت في صحراء مع أمة أمية جاهلية ليس عندها أي قصص ، وليس عندها علم ، فاسمع الآن القصص .

ثم ينتقل بنا القران إلى يوسف صلى الله عليه وسلم ، والى أبيه يعقوب ، إلى الأنبياء المطهرين والأسرة العريقة ذات الكرم والجود والتقوى .

وما كان من خير آتاه فإنما *** توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطى إلا وشيجة *** وتغرس إلا في منابتها النخل

يصحو يوسف ، عليه السلام ،وهو غلام فيما يقارب العاشرة فيجلس أمام أبيه ، ومن أجب الأعاجيب عند الطفلان يرى في النوم رؤيا ليفرح بها ويقصها على أبيه وأمه ، وبعضهم يزيد فيها وينقص .

وأما يوسف صلى الله عليه وسلم فما زخرف وما زاد ، بل جلس أمام أبيه ، وقال : يا أبتاه !! إني رأيت البارحة أحد عشر كوكبا في السماء والشمس والقمر .

ولو سكت لما كان في القصة عجب ؛ لأن الكل يرى النجوم والكواكب والشمس والقمر ، ولكن سر الرؤيا كان في الخاتمة {رأيتهُمْ لِي سَاجِدِينَ} (يوسف: من الآية4).

ففزع يعقوب بهذه الرؤيا ، وفطن لأنه من الأنبياء ، وعلم أن ابنه هذا سوف يكون له شأن أيما شأن ، وسوف يكون وارثه في النبوة .

فخاف أن يخبر إخوانه بهذه الرؤيا ، فيأتي الشيطان فيفسد ما بينهم وبينه .

فقال : (يا بني) للتحبيب {لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ} (يوسف: من الآية5) حذاري حذاري أن يسمعوا هذه القصة ، فلا تخبرهم أبدا انك رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون لك .

ولكن يوسف ، عليه السلام ، نسي لصغره الوصية ، فأخبر بها إخوانه عندما جلس معهم .

ولذلك علمنا صلى الله عليه وسلم أن أحدنا إذا رأى رؤيا أن لا يقصها إلا على من يحب [24].

فثار الحقد والحسد في قلوب إخوانه ، وبدءوا يدبرون له المكايد .

فعلم يعقوب بأنهم علموا الرؤيا فتضايق وخاف منهم على أخيهم .

ثم قال تعالى : {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيات لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8)} فهم إضافة إلى تلك الرؤيا التي أثارتهم ، قد ازدادوا بغضا ليوسف عندما رأوا أباهم يقربه ويحبه ويبش له دونهم .

---

[24] كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (7044) ، ومسلم (2261) عن أبي قتادة ، رضي الله عنه .

وفي هذا : تنبيه للآباء بأن لا يفضلوا أحد أبنائهم على الآخرين ؛ لأنه في النهاية إن لم يصرفه الله عن السوء سيكون مثل إخوة يوسف ، ولا شك .

ولا تغررك الأفعال الظاهرة ، فإن بعض القلوب والنفوس تكتم شـــعورها لتفرغـــه في الوقت المناسب .

المهم : أنهم دبروا لأخيهم مكيدة ما سمع التاريخ بمثلها .

فهو طفل صغير عاقل تقي ورع من أبناء النبوة ،لكنهم قرروا قتله أو إخفاءه .

{يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً}

لماذا كل هذا ؟

{يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} أي : سوف تختلون بأبيكم وينفرد بحبكم ، {وَتَكُونُوا مِـــنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ} فتتوبون من الخطأ ، وتستغفرون الله من الجريمة ،ويتوب الله عليكم .

قال ابن عباس ، رضي الله عنهما : نووا التوبة قبل الذنب .

{قَائِلٌ مِنْهُمْ} وهو أكبرهم {لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ} فالقتل جريمة نكراء عند هذا الأخ الذي تحركت غيرته على أخيه نوعا ما ، فجعلته يختار عدم القتل ، ولكن {وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ } ي : في بئر عميقة ، {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} أي : مصممين علـــى هذه الفعلة .

فلما اجتمعوا، اجمعوا أمرهم على هذه المكيدة.

ولكن ، من يخرج يوسف من بيد يدي أبيهم ، عليه السلام :

فأتوا يوما وقالوا : {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ} أنحن خونة ؟ أتشك فينا ؟ هل ضربناه ؟ هل حسدناه ؟ {مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} فنحن نحبـــه والله ، وننصح له ، ولا نريد إلا الخير له .

ثم أكدوا طلبهم وقرنوه ببعض الأعذار المغرية والتطمينات فقالوا : {أرسلهُ مَعَنَا غَـــداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} أي : يرعى معنا الغنم ، بل ويلعب أيضا ؛ لأن الصغار دائما يحبون اللعب ، ولا تخف فنحن سنحفظه من اللصوص ومن الذئاب لأننا عصبة كثيرون.

فقال ، عليه السلام : {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ} أجد وحشة والله على هذا الابـــن أن يذهب من بيتي ، (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لما كانوا قالوا في الأخير : {أَكَلَهُ الـــذِّئْبُ} لأن هذا ليس في أذهانهم منذ البداية ، فهو ، عليه السلام ، قد سهل لهم العذر والمكيدة.

فخرجوا به، فلما أصبحوا في الصحراء ، والغنم ترتع وتأكل وهم يلعبـــون ، والجـــو ساكن وهادئ ، والطيور تغرد وتزغرد ، والنسيم يعل وينهل على الأعشاب ، ولكن القلوب تغلي بالحقد على الأخ الحبيب القريب والصغير .

فأخذوه ، وقيدوه بحبل ، وأنزلوه في البئر .

فأخذ يستغيث ويظن أنهم يمزحون ، وقد خيروه بين القتل وبين أن يلقى في البئر .

كفى بك داءان ترى الموت شافيا *** وحسب المنايا أن يكن امانيا

تمنيتها لما تمنيت أن تـــــــــــرى *** صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

فأنزلوه ، وهو يتشبث بالحبل ، ويبكي .

قال ابن عباس ، وهو يبكي ، حينما قرأ سورة يوسف : هدأت الحيتان في البحر مـــن التسبيح ، و لم يهدأ يوسف ، عليه السلام ، من التسبيح.

فلما نزل في قعر البئر ، قطعوا الحبل ، فبقي في حفظ الله ، وفي رعاية الله .

وإذا العناية لاحظتك عيونها *** نم فالحوادث كلهن أمان

قطعوا الحبل ، وتركوه في البئر ، وهو يلهج بذكر الله في الصحراء ، وحيدا ليس معـــه إلا الله .

الذئاب حوله ، والجو مكفهر ، لا خبز ولا ماء ولا طعام ، ولا أهل ولا جـــيران ولا أحبة ولا مؤنس يؤنس ، وإنما الذئب يعوي في صحراء مدوية.

عوى الذئب استأنست بالذئب إذ عوى *** وصوت إنسان فكدت أطير

وإخوته بفعلهم هذا قد أخطأوا في ثلاث مواطن:

الأول : أنهم نفذوا جريمتهم في أول يوم يذهب فيه معهم ،وهذا دليل علـــى شـــدة تعجلهم بالانتقام منه ، وإزالته من أمام أعينهم .

ولو أعادوه ليطمئن أبوهم لما شك فيهم ، ولكنها حكمة الله التي فضحتهم .

الثاني : أنهم خلعوا قميصه ،و لم يمزقوه ، وقالوا : أكله الذئب .

وهذه غفلة منهم ؛ لأن الذئب إذا أراد الأكل لا يخلع القميص بل يمزقه **!!**

الثالث : أنهم عندما عادوا لأبيهم وأخبروه قالوا: وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا}(يوسف: من الآية17) أي : بمصدق.

وهذا كقولهم في المثل : (كاد المريب أن يقول خذوني).

فأوحى الله إلى يوسف {لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} أي: ستمر الأيام وتخبرهم بهذا الصنيع منهم بعد سنين طويلة .

فعاد الإخوة إلى أبيهم في العشاء يبكون .

ولماذا العشاء ؟

لماذا لم يعودوا في العصر ؟

قيل : لئلا يرى أبوهم الدم بوضوح ،فيكتشف انه ليس بدم آدمي.

وقيل : ليتوهم أنهم تأخروا في مطاردة الذئب !

فسألهم : ما الخبر ؟

ما هذه الدموع الساخنة ؟ (دموع التماسيح!).

فسألهم : ما الخبر ؟

ما هذه الدموع الساخنة ؟ (دموع التماسيح!).

فقالوا : (إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) أي : نتسابق ونجري (وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا) لكي لا يصل أو يبعد عن أعيننا (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) أي : جاء الذئب وأكله ونحن لاهون في مسابقتنا ولعبنا .

ثم قالوا : حتما لن تصدقنا {أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} لكن انظر إلى الدليل : أخرجوا له القميص وجعلوه قريبا منه ليلمح آثار الدم عليه . لكنه ، عليه السلام ، علم المكيدة من اللمحات والنظرات والريبة ، و القميص الذي لم يمسسه مزق واحد ، فقال : {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفسكُمْ أَمْراً} لقد كدتم مكيدة {جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} .

قال ابن تيمية ، رحمه الله : الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه .

والصبر الجميل : هو الذي لا تظهر فيه الفقر والمسكنة إلا لله .

والصبر الجميل : أن تتجمل أمام خلق الله .

قيل لأحد العباد : ما هو الصبر الجميل ؟

قال : أن يقطع جسمك قطعة قطعة ، وأنت تبتسم.

وقال آخر : الصبر الجميل أن تبتلى ، وقلبك يقول : الحمد لله .

ثم تولى يبكي حتى ابيضت عيناه.

وبالفعل صبر يوسف ، عليه السلام ، حتى أرسل الله ، عز وجل ، برحمة منه قافلة تمر من ذلك المكان ،وبالقرب من البئر ، فذهب و أردهم وأدلى دلوه في البئر يستقي الماء ، فتعلق يوسف ، عليه السلام ، بالدلو ، فلما سحب الرجل الدلو رأى غلاما جميلا قد أوتي شطر الحسن ، فقال لأصحابه : {يَا بُشْرَى} فانتبهوا ، فقال : {هَذَا غُلامٌ} أي : خادم وعبد لي ، سوف أبيعه .

ثم يقول عز من قائل : {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} قيل : أخفاه بعضهم عن بعض وجعلوه بضاعة .

وقيل : أخفوه من الناس ، خوفا أن يجدوا أباه أو أقاربه ، وما علموا أن إخوانه هم الذين تركوه وهم الذين طرحوه وهم الذين هجروه و أبعدوه .

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} فالله يتابع سيرة هذا النبي ، وقصة هذا الرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام .

وذهبوا به {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} وشرى هنا : بمعنى باع .

{بِثَمَنٍ بَخْسٍ} لأن الدنيا وما فيها لو دفعت في مثل يوسف عليه لإسلام ، لكانت بخسا ، ولكانت غبنا ، ولكانت خسارة .

{دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} و لم يقل موزونة ، لأن المعدود دائما اقل من الموزون ، {وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} أي : لا يرغبون فيه ، ولا يريدون أن يكون معهم .

{الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ} و لم يسمه الله باسمه .

قيل : لأن القصة ليوسف ، عليه السلام ، فما كان لأحد أن يزاحمه فيها .

وقيل : لأن كلمة العزيز لا يستحقها العزيز ؛ لأن العزيـــز مـــن اعـــزه الله بطاعتـــه ،والشريف من دخل في عبودية الله.

ومما زادني شرفا وفخـــــــرا *** وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي *** وأن صيرت أحمد لي نبيا

فقال لامرأته : {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} وهذا مبالغة في الإكرام ، أي : أحسني طعامه وشرابه وكسوته ومنامه ، {عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا} فيخدمنا في أغراضنا ، ويقضي لنا بعض حوائجنا ، (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً) لأن العزيز كان حصورا لا يأتي النساء ، وكانت امرأته عقيما.

فأراد أن يتخذ هذا الغلام ولدا يترعرع في بيتهم ، يهدؤون ويرتاحون إليه ، وهـــم لا يشعرون انه لن يكون لهم ولدا ، بل سوف يكون نبيا من الأنبياء ، ورسولا يحمـــل رســـالة السماء إلى الأرض ، وداعية إصلاح يحرر الشعوب ويقود الأجيال إلى الله .

ومكث ، عليه السلام ، في قصر العزيز تقيا عابدا متألها متعلقا بالحي القيوم .

وتمر الأيام ، ويزداد حسنا إلى حسنه ،وجمالا إلى جماله .

فتراوده المرأة التي عاش معها تلك السنين الطويلة.

فيا للفتنة!

ويا للمحنة!

شاب أعزب فيه الشهوة ، وليس له أهل يعود إليهم ، وغريب لا خشى على نفسه من السمعة القبيحة ، كما يخشى صاحب الوطن ، {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَـــا عَـــنْ نَفْـــسِهِ} تعرضت له كثيرا ، وتجملت له دائما ؛ لأنها ذات منصب وذات جمال ، فهي كملكة في قصر ملك .

ولكن الله معه يحفظه ويسدده .

وفي يوم من الأيام عملت على إغلاق الأبواب كما قال تعالى : {وَغَلَّقَتِ الْــأَبْوَابَ} وكانت سبعة أبواب ، فغلقت كل باب ، و لم يقل سبحانه : أغلقت ، وإنما {وَغَلَّقَتِ} زيادة في المبنى ليزيد المعنى .

فخلت معه ولكن الله سبحانه وتعالى يراهما {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَــكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)} [الشعراء] .

{هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا} .. فخلا بالمعصية ، لكن ما خلا عن عين الله .

وإذا خلوت بريبة في ظلمــــة *** والنفس داعية إلى الطغيان

استحيي من نظر الإله وقل لها *** إن الذي خلق الظلام يراني

{وَهَمَّ بِهَا} أي : هاجت الشهوة في قلبه ، عليه السلام ، {لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ}.

فما هو برهان ربه يا ترى ؟

تلك أقوال المفسرين ، أعرضها عليكم ، ثم نخرج بالراجح ، إن شاء الله :

1- قال ابن عباس ، رضي الله عنه : لما هم يوسف بها سمع هاتفاً يهتف يقول : يـــا يوسف ، إنني كتبتك في ديوان الأنبياء ن فلا تفعل فعل السفهاء.

2- وقال السدي : سمع هاتفا يهتف ويقول : يا يوسف ، اتق الله ، فانك كالطـــائر الذي يزينه ريشه ، فإذا فعلت الفاحشة فقد نتفت ريشك.

3- وقال بعض المفسرين : رأى لوحة في القصر مكتوب عليها {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً } [الإسراء : 32]

4- وقال غيرهم : رأى كفا مكتوبا عليه {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ}[الانفطــار : 10] أي : إننا نحفظ تصرفاتكم وحركاتكم وسكناتكم.

5- وقيل : بل رأى يعقوب أباه في طرف الدار قد عض على إصبعه وهو يقول : يا يوسف ، اتق الله ، أورده ابن جرير وابن كثير .

6- وقال بعض أهل العلم من المفسرين أيضا : لما همت به وهم بها قالت : انتظـــر ، فقامت إلى صنم في طرف البيت فسترته بجلباب على وجهه .

قال : ما لك ؟

قالت : هذا الهي استحي أن يراني.

فدمعت عينا يوسف ، وقال : أتستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ، ولا يملك ضرا ولا نفعا ، ولا حياة ولا نشورا ، ولا أستحي من الله الذي بيده مقاليد الأمور .

7- ويرى ابن تيمية ، شيخ الإسلام ، وغيره من أهل العلم : أن برهان ربه الذي رآه ، هو : واعظ الله في قلب كل مؤمن ، فقد تحرك واعظ الله ، والحياء من الله ، والخجل من الحي القيوم في قلب يوسف ، عليه السلام ، فارتدع عن المعصية وعاد منيبا إلى الله {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)} [النازعات] فتذكر الوقوف بين يدي الله فتراجع.

فهل آن لشباب الإسلام أن يتحرك واعظ الله في قلوبهم ؟

وهل آن للمسلمين أن يجعلوا من يوسف ، عليه السلام ، قدوة لهم ؟

فيا من يتطلع على عورات المسلمين ، أليس لك في يوسف ، عليه السلام ، قدوة ؟

يا من يعامل ربه بالمعاصي ! ويرتكب الجرائم ! ويحرص على الزنا! أما رأيت يوسف؟؟ وقد خلا بامرأة جميلة ذات منصب ، فتذكر واعظ الله في قلبه ؟

ويا من دعا إلى التبرج والسفور !! أما رأيت ما صنعت الخلطة بالنبي المعصوم الذي كان أن يزل وان يهلك ؟ وأنت تنادي المرأة أن تتبرج وتسفر عن وجهها وتخالط الرجال !!.

يقول صلى الله عليه وسلم : ((لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما))[25] .

ويقول صلى الله عليه وسلم : ((لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة))[26].

ثم قال الله له : {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ} لنعمر مستقبله باليقين ، ولنجعله من ورثة جنة رب العالمين مع المؤمنين الخالدين {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} ، وإذا اخلص العبد لله حماه الله من الفتن ، ووقاه المحن ، وجنبه الشرور .

---

[25] صحيح . أخرجه احمد (115) ، والترمذي (2165) ، وصححه ، عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وانظر ((المشكاة)) (3118).

[26] صحيح . أخرجه احمد (22465) ،وأبو داود (2149) ، والترمذي (2777) ، وصححه ، عن بريدة بن الحصيب ، رضي الله عنه .

يقول سعيد بن المسيب ، رحمه الله : إن الناس في كنف الله وســـتره ، فـــإذا أراد أن يفضح بعضهم رفع ستره ، سبحانه وتعالى ، عنهم ثم قال الله عز وجل : {وَاسْتَبَقَا الْبَـــابَ} هو يهرب من الفاحشة وهي تلاحقه .

يهرب إلى الله ، ويفر إلى الحي القيوم وهي تلاحقه (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) شقت قميصه وهي تلاحقه وتدعوه إلى نفسها ، وهو يلتجئ إلى الله ويصيح بأعلى صوته ، وصوته يدوي في القصر {مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ }قال بعض المفـــسرين : يعـــني بذلك زوجها الذي أحسن مثواه ، وهو يسمي (ربا) عندهم أي : سيدا ، كقولنـــا : (رب الناقة) أي : سيدها.

وقال السدي وغيره : إنه الهي الحي القيوم ،اجتباني ورباني وعلمني وحفظني وحمـــاني وكفاني وآواني فكيف أخونه في أرضه ؟

يا من أراد أن يتجاوز المحرمات ويتعدى الحرمات تذكر معروف الله .

{وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}إن هذه القصة مذهلة ومدهشة ، فكلها مفاجآت وبغتات.

فبينما هي تلاحقه ، وإذ بسيدها أو بزوجها عند الباب .

ولكن انظر إلى كيد النساء ومكرهن ، فهي قد سبقت يوسف بالكلام ، واهمته بأنـــه يريدها عن نفسها! ثم أصدرت الحكم عليه وقالت : {قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أراد بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

قال ابن عباس : يضرب بالسياط.

فقال يوسف بلسان الصادق الناصح الأمين التقي الورع الزاهد العابد : {قَـــالَ هِـــيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي} وصدق لعمر الله ، {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أهلها} قيل : من أبناء عمهـــا ، وقيل : رجل من الخدم .

والصحيح الذي عليه الجمهور : انه طفل صغير ، كان بالغرفة لا يتكلم أنطقه الله الذي أنطق كل شيء .

ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ((أربعة تكلموا في المهد : ماشطة امـــرأة فرعون ، والغلام الذي مع جريج ، وعيسى عليه السلام ، والغلام الذي شهد ليوسف عليـــه السلام))[27] وسنده جيد.

وقال لهم : انظروا إن كان القميص قد شق من خلفه فهي الكاذبة ، وهو الـــصادق ؛ لأنها هي التي مزقته ، فهي التي تجري خلفه .

وإن كان قد شق من الإمام فهو الكاذب – وحاشاه – وهي الصادقة ، لأنه ســـيكون هو الذي هاجمها .

فوجدوا انه هو الصادق ، عليه السلام ، فنصحه زوجها بأن لا يخبر أحدا ، ولا يشيع الخبر في الناس ، فقال : {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} .

وأما المرأة فنصحها برفق ولين ، على الرغم من جريمتها!!

فقال : (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) فقط استغفري وتوبي !

فأنقذه ، سبحانه وتعالى ، من البئر عندما كاد له أخوته ، وأنقذه ، سبحانه وتعـــالى ، من الفتنة عندما كادت له امرأة العزيز .

ولكن بقيت محنته القادمة التي سيتعرض لها في السجن ، ولعلها تأتي في موضع آخر .

* فوائد من قصة يوسف :

ولكن نستفيد من هذين المقطعين من قصة يوسف ، عليه السلام ، امورا عظيمة ، تهم حياتنا في البيت أو في المجتمع .

أولا: أن هذا القران معجز وبليغ ، وقد تحدى به الله العرب الفصحاء فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله .

قال سبحانه : {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء : 88].

---

[27] سنده جيد . أخرجه احمد (2817) ، والبيهقي (389/2) ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، بنحوه . وقال ابن كثير في ((التفسير)) (16/3) : إسناده لا باس به .

ثانيا : أن الرؤيا منها ما يكون حقا ، ومنها ما يكون باطلا ، فإذا كانت من الرجـــل الصالح ، و لم تكن بأمر مستحيل ، فهي صادقة ، بإذن الله .

ثالثا : أن على المسلم إذا رأى رؤيا أن لا يخبر بها إلا من يحب ، ولا يخبر بها كل الناس.

أما الرؤيا السيئة ، فلا يخبر بها أحدا ؛ لأنها لن تضره ، بإذن الله .

رابعا : أن الناس قد فطر كثير من منهم على الحسد.

قال الحسن : ما خلا جسد من حسد ، ولكن الكريم يخفيه ، واللئيم يبديه .

وهو من أعظم الذنوب ؛ لأنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب.

وهو يذهب بالتقوى ، ويغضب الرب سبحانه ، قال سبحانه : {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّـــاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء : 54] وهو أول أمر عصي به الله ، وذلك عندما حـــسد إبليس آدم.

والواجب على الحاسد : أن يتقي الله ، وان يعلم أن الأمور بيد الله ، والفضل له يعطيه من شاء ، فانك إذا حسدت أحدا فقد اعترضت على قضاء الله وحكمته .

يقول الشاعر:

ألا قل لمن ظل لي حاســــــــدا *** أتدري على من أسأت الأدب

أسات على الله سبحانــــــــــــه *** لأنك لم تر لي ما وهـــــــب

وواجب الحاسد : أن يستغفر ويتوب ، ويدعو لأخيه بخير ، وأن لا ينافسه إلا علـــى أمور الآخرة المقربة عند الله ، أما الدنيا فإنها تأتي وتذهب.

خامسا : عدم تفضيل بعض الأبناء على بعض ، كما سبق ؛ لأن هذا يورث الحـــسد والبغضاء بينهم ، وعدم إعطاء أحدهم شيئا دون الآخر .

ولذلك لما أتى النعمان بن بشير يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم على عطيته لأحد أبنائه ، قال له صلى الله عليه وسلم : ((أأعطيت كل أبنائك مثله ؟)).

قال : لا

قال : ((لا تشهدني على جور))[28].

سادسا : أن الحافظ ، هو : الله سبحانه دون غيره ، فالجأ إليه في الضوائق والـــشدائد ليحفظك سبحانه ، ومن عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة.

سابعا: وجوب الصبر عند الفتنة ، خاصة فتنة النساء ، والالتجاء إلى الله ليصرفها عنك ، وخير ما يصرفها كما قال سبحانه هو التقوى والإخلاص.

هذه أبرز الفوائد من هذين المقطعين من هذه السورة العظيمة.

* *

[28] أخرجه البخاري (2650) ، ومسلم (1623) عن النعمان بن بشير ، رضي الله عنه .

جولة مع بني إسرائيل

قال تعالى : { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)} [البقرة].

وقال سبحانه في سورة الأعراف : { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} (لأعراف: من الآية 142).

كيف واعده سبحانه ؟

يقول الرازي وغيره : إما انه واعده قبل أن يلتقي ، سبحانه وتعالى ،بموسى في اللقاء التاريخي ليتلقى كلام الله .

وهذا أمر عجيب !

فقبل أن يكلمه الله واعده أن يأتي بعد أربعين.

وقيل بل مدة المكالمة أربعين ليلة ، أي : أن الوقت والزمن الذي تستغرقه المكالمة مع الله هو أربعون ليلة.

فلما نجى الله موسى ، عليه السلام ، قال لبني إسرائيل مكانكم اجلسوا ، وكانوا ستمائة ألف ، لكنهم خبثاء حقراء ، أهل تمرد على الله ، إلا من رحمه الله .

قالوا : أين تذهب

قال : اذهب آل الله ليكلمني.

قالوا : لا بد أن تأتي معك بشيء لنعلم هل كلمك أم لا .

فذهب ، عليه السلام .

وفي بعض السير انه مكث ثلاثين يوما صائما .

فلما كان في الطريق وجد ثار الصيام (الخلوف) في فمه .

فأخذ سواكا فتسوك.

فلما كله الله ، قال يا موسى ، وتستاك ؟

قال لأكلمك يا ربي ، وأنا طاهر الفم .

لأن في الحديث الصحيح : ((السواك مطهرة للفم مرضاة للرب))[29].

قال : يا موسى ، إما تعلم أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك.

عد فصم عشرة أيام ثم تعال

فلما أتم الأيام عاد فكلمه ، وأوصى إليه ما أوصى .

فقال : { رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إليك} (لأعراف: من الآية 143) .

قال الله : { لنْ تَرَانِي } (لأعراف: من الآية 143) .

{فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } (لأعراف: من الآية 143)

فاستفاق وقال : { سُبْحَانَكَ تُبْتُ إليك وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} (لأعراف: من الآية 143).

حينها عاد موسى ، وقد أعطاه الله الألواح ، وكب الله له التوراة بيده كما في ((الصحيح)).

أما بنو إسرائيل في تلك الفترة ، فقد جمعهم رجل مجرم ،اسمه : (السامري).

وكان رجلا داهية منافقا ، يزعم أن جبريل رباه بالوحي الذي يترل به من عند الله .

وكان اسمه الحقيقي (موسى) أيضا .

فلذلك يقول الشاعر :

فموسى الذي رباه فرعون مؤمن *** وموسى الذي رباه جبريل كافر

أتى هذا السامري ، فقال لبني إسرائيل : عندي لكم نبأ عجيب.

قالوا ما هو النبأ العجيب ؟

قال : موسى ذهب يبحث عن إلهه ، وإلهه هنا .

قالوا : أين ؟

قالوا : هذا العجل .

وكان قد أخذ حلي النساء ، وذهب النساء ، وفضة النساء ، ثم سبكها ، ثم صور لهم عجلا ، فكان ينفخ فيه فإذا هو يصلصل .

---

[29] صحيح ، أخرجه البخاري معلقا في كتاب الصوم ، باب سواك الرطب ، ووصله احمد (23683) ، والنسائي (5) ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، وانظر : الإرواء (66) ، وهو صحيح .

قال :{هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} (طـه: من الآيـة 88) أي : نسي موسى ألهه وتركه هنا .

سبحان الله !

عجل ، لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا يرد لهم قولا ولا رشدا ولا حكمة .

ولكن العقول السخيفة .

فأتى موسى ، عليه السلام ، وإذا هم عاكفون على العجل ، فقال : ما هذا ؟

قالوا : هذا إلهنا .

فألقى الألواح من الغضب .

انظر إلى الغضب ماذا يفعل ؟

فكلام الله لا يلقى في الأرض .

وعمد إلى هارون أخيه ، وهو أكبر منه سنا ، فأخذه بلحيته أمـــام النـــاس ، وأراد أن يقتله .

فقال : لا تشمت بي الأعداء لقد استضعفوني ؛ لأن موسى كان يرهب بني إسرائيل إذا كان فيهم ، فلا يستطيعون المخالفة ، بخلاف هارون ،عليهما السلام جميعا .

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم في عمر بأن فيه شبها من موسى.

ولذل فبعض المؤمنين يكون قويا في الحق ، وبعضهم يكون ضعيفا لا يستطيع قول الحق أو إنكار المنكر .

ذكروا في التاريخ أن الخليفة المعتضد كان من ابرز خلفاء بني العبا ، فأتى عـــالم مـــن العلماء فوجد الخمر يباع في السوق .

فاخذ سكينا وعمد إلى جرار الخمر فقطع مائة قربة ، ثم أتى إلى الطبول فشقها .

فذهبوا إلى الخليفة ليخبروه فقال : افصلوا رأسه عن جسمه .

فدخل على الخليفة ، فقال له الخليفة : ما هبتني ؟

قال : والله ، ما أقدمت عليها إلا من بعد ما تصورتك اقل من الذباب .

قال : أما علمت إني المعتضد؟

قال : علمت .

قال : ماذا تصورت إني افعل بك ؟

قال : تصورت انك تفصل رأسي عن جسمي ، والمصير الجنة .

قال : لماذا شققت مائة قربة ، وتركت قربة واحدة ،وقطعت الطبول وتركت طبلة ؟

قال : لما بدأت أشق القرب والطبول أعجبتني نفسي ، فرفعت السكين خشية من الرياء في إنكار المنكر .

فسامحه الخليفة ، وقال :علمت انك صادق .

فقال هارون لأخيه موسى : { ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (لأعراف: من الآية 150) .

فاستغفر له ولأخيه .

فقال موسى لهم : لقد كلمني ربي وهذه الألواح .

وسيأتي إكمال ذلك ، ولكن نعود إلى الآيات .

يقول ، سبحانه وتعالى {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتمْ ظَالِمُونَ} (البقرة:51)

الظلم ظلمات يوم القيامة .

والظلم على قسمين .

1- ظلمك لنفسك وهو أن تحرمها طريق السعادة .

فأظلم الناس من ظلم نفسه .

إذا رأيت الإنسان يشرك بالله فقد ظلم نفسه ظلما ما بعده ظلم ، وهكذا إذا كان يعطل الصلاة في المسجد ،ويعق والديه ، ويقطع رحمه ، ويرتكب المعاصي .

2- وظلم الناس هو النوع الثاني .

والظلم ظلمات يوم القيامة .

والله عز وجل لا يفصل في العرصات يوم العرض الأكبر ، حتى يفصل بين الناس في المظالم .

حتى أن الشاة القرناء يقتص منها للشاة الجلجاء الجماء التي لا قرون لها .

قوله : {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة:52)

بعدما عبدوا العجل .

وقد ورد في القرآن العفو ، وورد الرضا ، وورد المغفرة . فما الفرق بينهما ؟

الرضا أعظم المنازل ، نسأل الله أن يرضى عنا وعنكم .

الرضا أن يعفو عنك ، ولا يعاتبك ، ولا يقررك بشيء ، بل يعفو عنك أبدا ، ويرضى عنك ، ولا يعاتبك في شيء .

وهذا مثل – ولله المثل الأعلى – إنسان أخطأت معه ، فأتيت عنده فرضي عنك رضاء تاما ، وقال : إنما رضيت عنك لأني احبك .

أما المغفرة فيقول : غفرت لك ،لكن قلبي يعلمه الله ، لكن ما أجازيك وأتعرض لك ، اذهب .

أما العفو فهو المسامحة مع العتب .

يعفو عنك فيقول : أنا عفوت عنك ، لكن لماذا فعلت هذا الفعل ؟ فيأخذ في معاتبتك.

قال سبحانه وتعالى : {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ } لماذا لم يقل : ثم رضينا عنكم .

كيف يرضى عن بني إسرائيل أهل الفضائح في التاريخ ؟

لكن قيل : بان هؤلاء الذين عاشوا مع موسى صلى الله عليه وسلم ، رضي الله عنهم وعفا عنهم ، أما غيرهم فلا ، كما سيأتي .

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} .

للشكر أقسام : شكر بالقلب ، وشكر باللسان ، وشكر بالجوارح .

فتشكر الله ، سبحانه وتعالى ، بلسانك فتقول : لقد انعم الله علي ، فلله الحمد والشكر والمنة والفضل .

وهذا معروف عند العرب ، فإن العربي أو السلطان من العرب ، أو الملك من العـــرب إذا أعطى عطية فإنه يشكر عليها عندهم .

وهكذا غيره من الكرماء ومن الناس المشهورين .

كما فعل زهير بن أبي سلمى مع هرم بن سنان ؛ الذي مدحه بقصائد طويلة شكرا له على ما قدم ، وفدى بماله في الحرب التي وقعت .

فقال فيه زهير :

لمن الديار بقنة الحجر *** اقوين من حجي ومن هجري

دع ذا وهات القول في هرم *** خير البداة وسيد الحضر

لو لم يكن شخصا سوى رجل *** كان المنور ليلة البـــــدر

والشكر بالقلب : أن تعتقد أن هذه النعمة من الله .

قال داود : يا رب كيف أشكرك ؟ وقد أنعمت علينا بالنبوة .

قال : يا داود أتعرف أن ذاك مني ؟

قال : نعم يا رب .

قال : فقد شكرتني ، {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} (النحل: من الآية 53)

وهذا شكر القلب

وشكر الجوارح أن تستعملها في مرضات الله عز وجل .

انعم الله عليك بالشباب ، فانك تستخدمه في طاعته سبحانه ، إما إن اســتخدمته في معصيته فما شكرته .

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (المائدة: من الآية 6) لكن ما شكروا الله .

ثم قال سبحانه وتعالى : { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة:53)

هل هناك فرق بين الكتاب والفرقان ؟

ثلاثة أقوال لأهل العلم :

قيل : الفرقان هو جزء من التوراة .

وقيل : هو كتاب مستقل .

وقيل : هو التوراة ، أي : من باب الترادف.

والصحيح : انه يدخل في التوراة ، وانه من باب الخاص بعد العام ، أي : أن الفرقـــان جزء من التوراة .

والفرقان على قسمين :

فرقان ظاهر ، وفرقان باطن .

فالفرقان الظاهر ، هو القرآن ، وهو السنة ، وهو العلم النافع .

وفرقاننا ، يا مسلمون ، هو الكتاب والسنة ؛ نفرق به بين الحق والباطل .

وأما الفرقان الباطل ، فهو فرقان في القلب يأتي من التقوى {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُـــوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَــضْلِ الْعَظِــيمِ} (الأنفال:29)

ويحصل الفرقان كلما اتقيت الله ، وأكثرت من النوافل ، وصدقت مع الله ، وأخلصت نيتك ، رزقك الله فرقانا به بين الخير والشر والصادق والكاذب والهدى والضلال .

قال سبحانه وتعالى {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَــدُونَ} (البقــرة:53) هداية القرآن وهداية الفرقان.

لكن ما اهتدوا .

أتدرون ماذا فعل بنو إسرائيل بهذا الميراث ؟

يقول سبحانه وتعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (البقرة:78) أي : يتمتمون بالتوراة ، فحرفوها وبدلوها واشتروا بها ثمنا قليلا ، فغضب الله عليهم ولعنهم في الدنيا والآخرة.

إذا لا يوثق بمعلوماتهم أبدا ؛ لأنهم بدلوا وغيروا .

والمقصد من الكتاب والفرقان : الهداية .

والهداية لا تحصل عندنا إلا بالقران وبالسنة .

وهنا أقف وقفة بسيطة ، وهي انه وجد من غلاة الصوفية من يقول : علمنا علم الخرق ، وعلمكم علم الورق ، أي : أن علمهم يأتيهم مباشرة من الله دون حاجة إلى تعلم الحديث والفقه وغيرها.

حتى نقل ابن القيم أن أحد علمائهم يقول : أنتم تأخذون علمكم من عبد الــرزاق ، ونحن نأخذ علمنا من الرزاق .

أي : عبد الرزاق بن همام أحد المحدثين الكبار ، وقد جاء عبد الرزاق ، مــا عــرفتم الخلاق .

قال سبحانه :{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إنكم ظَلَمْتُمْ أنفسكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْــلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أنفسكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّــوَّابُ الرَّحِيمُ} (البقرة:54)

يقول موسى لهم : كفارتكم عند الله من الذنوب : أن تقتلوا أنفسكم .

فلله الحمد والشكر أن جعل توبتنا أن نعود إلى الله دون حاجة لقتل أنفسنا .

مهم عصى العبد وتاب ، تاب الله عليه ، بأن يترع من الذنب ويستغفر ويصلي ركعتين {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أنفسهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِــرُ الــذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الزمر:53)

لكن بنو إسرائيل توبتهم تكون بقتل النفس .

فقالوا : كيف نقتل أنفسنا ؟

قال : خذوا سكاكين .

فأنزل الله عليهم غمامة ، كما قال ابن كثير : حتى لم يعد يعرف الواحد منهم ولــده من أخيه من خاله .

فأخذوا يتقاتلون بالسكاكين ، ثم كشف الله عنهم الغمام ، فإذا القتلى سبعون ألــف قتيل !

هذه توبتهم .

{فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} فتاب عليهم ربهم .

وأن بنو إسرائيل إذا أذنب العبد منهم ذنبا كتبت خطيئته على جبينه ، فيأتي في الصباح أمام الناس ليجلس معهم في المنتدى ، أو في المجلس ، أو في السوق ،وإذا مكتوب عليــه : (سرق البارحة) (سرق عشرة ريالات) (شرب الخمر) (زنى)... الخ .

لكن نحن سترنا الله ، وحفظنا من الفضيحة ،وآوانا الله .

فلله الحمد والشكر .

يذنب العبد فلا يعلم بذنبه إلا الله .

تصور في نفسك أن عليك رقيبا من الناس ، أو أن والدك دائما يراقـــب حركاتـــك وسكناتك ، فهل تعصي ؟

هذا هو بشر ، فما ظنك بالمحيط بل شيء سبحانه ؟

ولذلك صح في الحديث أن الله يقرر العبد بذنبوه فعلها في الظلام ، وليس عنده إلا الله الذي يشاهده يوم ارتكب ذنبه ، فيغفرها الله له .

أما المجاهر بالمعاصي فإنه يهلك عند الله ؛ لأنه تبجح بمعصية الرحمن و لم يستح ، قـــال صلى الله عليه وسلم : ((كل أمتي معافى إلا المجاهرين)) [30]، فالواجب على العبد أن يستر ذنبوه وعيوبه عن الناس ، ويتوب فيما بينه وبين مولاه ، قبل أن يفضحه فيفتضح أمامهم.

وواجب على المسلم أيضا أن لا يحاول نشر وإشاعة المعاصي والنكرات ، بالتحـــدث عنها بان يقول : حدثت جريمة قتل البارحة ، أو زنا أو لواط ، أو غير ذلك من الجرائم.

بل يبلغ الجهات المختصة دون نشرها على الناس .

لأن مثل هذا الفعل يجعل النفس تستمرئ سماع هذه الأخبار فتستهين بالمعصية .

ولأنها تحبط بعض النفوس عن الخير والعمل الصالح .

ولذلك في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : ((إذا قال الرجل : هلك الناس ، فهو أهلكهم))[31] روي بالنصب ((أهلكهم)) ، ورويت بالرفع ((أهلكهم)).

أما على النصب فمعناه من الفعل الماضي ، أي : هو الذي تسبب في إهلاكهم بكثـــرة نشره للسيئات .

وأما على الرفع فهو أهلكهم ، يعني : أشدهم هلاكا ، لأنه أعجب بنفسه .

فكأنه بذلك يزكي نفسه .

---

[30] أخرجه البخاري (6069) ، ومسلم (2990) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

[31] أخرجه مسلم (2623) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

فيا من أذنب في الليالي والأيام .

ويا من ترك الصلاة والصيام.

ويا من هجر البيت الحرام .

ويا من رآه الظلام عاصيا للواحد العلام .

عد إلى الله .

إن الملوك إذا شابت عبيدهم *** في رقهم عتقوهم عتق أبرار

وأنت يا خالقي أولى بذا رما *** قد شبت في الرق فأعتقني من النار

قال سبحانه وتعالى : {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأخذتكُمُ الصَّاعِقَةُ وأنتمْ تَنْظُرُونَ} (البقرة : 55) .

دائما بنو إسرائيل مثل الأطفال .

طفلك الآن إذا أجلسته في حجرك ارتقى إلى كتفك .

فإن أجلسته على كتفيك صعد على رأسك .

لقد آذوا موسى ، عليه السلام ، كثيرا .

ضرب لهم الحجر ، فتفجرت اثنتا عشرة عينا .

فقالوا : أعطنا الطعام .

فدعا الله لهم ، فأنزل المن والسلوى فأكلوا .

فقالوا : لا نريد المن والسلوى ، أعطنا فولا وبصلا وكراثا .

فقال : { أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ } (البقرة: من الآية 61) .

فهبطوا مصر .

فلما أرادوا أن يدخلوا الباب ، طلب منهم أن يقولوا : حطة .. أي : اغفر يا رب ذنوبنا وحطها عنا.

فدخلوا يزحفون ويقولون : حبة في شعيرة ، استهزاء واستهتارا .

فلما دخلوا قال لهم : هناك عدو نريد أن نقاتله .

قالوا : { فَاذْهَبْ أنت وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} (المائدة: من الآية 24) .

وهكذا شأنهم في كل أحوالهم معه لمن تأمل سورة البقرة .

قال سبحانه وتعالى : {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} (البقرة: من الآية 55) أتى موسى : بالصحف – كما سبق – وقال : كلمني الله وهذه هي الصحف .

قالوا : لا ، حتى نرى الله .

سبحان الله !

فهذه الأمة تتوارث الخبث صاغرا عن صاغر .

قال بعضهم : معنى جهرة ، أي : عيانا .

وقيل : علانية .

فقال الله عن نفسه { لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} (الأنعام: من الآية 103).

والناس في إثبات الرؤية ثلاثة أقسام :

1- المعتزلة قالوا : لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة وقد كذبوا .

أما في الدنيا فلا يرى ، وأما في الآخرة فيرى، كما قال سبحانه : {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } (القيامة:22- 23)

فنسأل الله أن يرينا وجهه .

واستدل الشافعي بقوله تعالى : {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} (المطففين:15)

فلما حجب أهل المعصية عن النظر إلى وجهه علم أن أهل الطاعة ينظرون إليه ، سبحانه وتعالى .

2- والصوفية أو بعض غلاة الصوفية قالوا : يرى في الدنيا والآخرة .

وقد كذبوا ، أما في الدنيا فلا يرى ، وأما في الآخر فيرى كما سبق .

3- وأما أهل السنة ، فقالوا وقد صدقوا : انه سبحانه لا يرى في الدنيا لقوله تعالى : {لَنْ تَرَانِي} (لأعراف: من الآية 143) ، ولكن يرى في الآخرة ، ولا يراه إلا الصالحون المؤمنون .

نسأل الله من فضله

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخذتكُمُ الصَّاعِقَةُ وأنتمْ تَنْظُرُونَ} (البقرة:55)

قيل : الصاعقة صوت نزل عليهم من السماء

ومعنى :{وأنتمْ تَنْظُرُونَ} قال أهل العلم : ينر بعضكم إلى بعض .

وقيل : قتل بعضهم بالصاعقة ، فلما ماتوا أحياهم الله ، ثم قتل الآخرين ثم أحياهم .

{ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة:56)

بعثهم الله فأحياهم بعدها أخذهم الصاعقة ليشكروا .

فما شكروا .

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} (البقرة:57) وهذه من النعم الجليلة أن يكون الجو جميلا معتدلا .

الهواء بارد ، والظل وارف ، والماء سلسال ، والجمال في الطبيعة ، والشجر تتظلل به ، وزقزقة العصافير في كل مكان .

فكن الغمام يسير معهم إذا ارتحلوا وإذا حلوا .

{وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}.

المن : شبه الحلوى .

والسلوى : طير يشوى لهم .

فكان يأتيهم رغدا من كل مكان ، يجدونه على الشجر ، يترل دون عناء أو تعب منهم .

{كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} و لم يقل : كلوا مما رزقناكم . ليبين انه حلال ؛ لأن الرزق قد يكون حراما ، وقد يكون حلالا .

ولكن الطيب هو الحلال .

{وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أنفسهُمْ يَظْلِمُونَ}

الله ، عز وجل ، لا تنفعه طاعة الطائع ، ولا تضره معصية العاصي .

قال سبحانه في الحديث القدسي : ((يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد ما نقص ذلكم مما عندي شيئا))[32].

وإما الإنسان هو الذي يظلم نفسه بمعاصيه وذنوبه .

نسأل الله أن لا يجعلنا من الظالمين .

هذه جولة عجلى على بعض أحداث هؤلاء القوم الأذلاء ؛ لنعرف ماضيهم وتاريخهم من قرآننا ؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فنعلم أنهم أمة ظالمة قد غضب الله عليها ؛ لأنها كثيرا ما عصت رسله وأنبياءه .

ونعرف شيئا من طباعهم ، وعلى رأسها المكر والخديعة وعدم الوفاء بالعهود.

فلا نثق بهم اليوم ، ونحاول أن نقيم معهم العهود ؛ التي هي سرعان ما تنتقض كما علمنا ذلك القرآن .

بقرة بني إسرائيل

سورة البقرة هي أطول سورة في القرآن ، ويصفها بعض العلماء بأنها سورة النسف والإبادة لبني إسرائيل ، واحتوت على كثير من أحوالهم مع أنبيائهم .

ومن تلك الأحوال ما سميت السورة باسمها ، ألا وهي قصة (البقرة) ، فإن بني إسرائيل تعنتوا فيها وعقدوا الأمور ، وتشددوا فشدد الله عليهم .

وملخص القصة : أن أحد بني إسرائيل كان غنيا جدا ، وكان له أبناء أخ يحقدون عليه لغناه ، فتآمروا على قتله وسلبه ماله ، فقتلوه في ظلام الليل دون أن يشعر بهم إلا رب السماوات .

ثم أرادوا أن يخفوا جريمتهم ، فتباكوا في الصباح على عمهم .

وذهبوا إلى موسى نبي الله ، وأخبروه ، وتحاكموا إليه ليبحث لهم عن قاتل عمهم !

---

[32] أخرجه مسلم (2577) عن أبي ذر ، رضي الله عنه .

فقام موسى فابتهل إلى الله بان يخبره بقاتل الرجل ، فأوحى الله إليه بان يأمرهم بقتل بقرة ، وأخذ شيء من أعضائها، وضرب الميت بها ليقوم ويخبرهم بقاتله .

فقال لهم موسى : {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} (البقرة:67) ولو ذبحوا أي بقرة لانتهى الأمر ونفذوا الطلب .

لكنهم تعنتوا وتشددوا مع نبيهم ، وقالوا : {أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً}

أي : أنهم استغربوا هذا الحكم ، وهذه الطريقة لإظهار القاتل ، وهذا من الاعتراض على الله .

فقال لهم موسى : {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}.

فعلموا انه صادق .

ثم قالوا :{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ} (البقرة:68) .

فقال {إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}.

أي : ليست بالكبيرة المسنة ، ولست بالصغيرة البر ، بل بينهما .

فتعنتوا أكثر وأكثر ، وقالوا : {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا} (البقرة:69) .

فقال : { إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}

وهذا من أجمل الألوان .

فذهبوا ثم عادوا وقالوا متعنتين : {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} (البقرة:70) .

قال : {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ} (البقرة:71) أي: ليست مهيئة للزرع ولا للحرث ، فهي معززة، أي : لا تحرث ولا تزرع .

ثم قال : {مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا} أي : ليس فيها علامات تخالف الأصفر الفاقع.

{قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ} أي : كأنهم يقولون أنت في الأول لم تأت بالحق ، سبحان الله ، فمن يأت بالحق إذا لم يأت به نبي الله ؟

ثم ذهبوا فوجدا البقرة عند عجوز في إحدى النواحي ، ليس لها إلا هي ، فتغالت في ثمنها ، حتى ملؤا لها جلد البقرة ذهبا .

فلما ذبحوها ضربوا ببعضها القتيل ، فقام من ميتته بإذن إله ، واخبر بقاتله ، ثم مـــات من جديد .

هذه هي القصة باختصار .

وفعل بني إسرائيل مع نبيهم في هذه القصة ، هو من التعنت والتشدد والأذى لرســـول الله .

وهم لم يفعلوا كما فعل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ الذين قالوا قبل بـــدر : والله ، لو سرب بنا إلى برك الغماد (موضع) لسرنا مع .

وكان الواحد يسمع كلامه صلى الله عليه وسلم فيصدقه ، وينفذه دون أن يراجعـــه صلى الله عليه وسلم ، أو يكثر عليه .

ومعلومة لديكم : قصة عمير بن الحمام لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يبـــشر بالجنة ، وأنهم ما بينهم وبينها إلا أن يقتلهم المشركون ، فرمى التمرات التي بيده وقاتل حـــتى قتل تصديقا له صلى الله عليه وسلم[33] ، ولم يتعنت كما تعنت أحفاد القردة والخنازير .

وفوائد هذه القصة (بقرة بني إسرائيل) عديدة منها :

أولا : أن العقل لا يحق له أن يعترض على الوحي الآتي من الـــسماء ، ويـــوم يبـــدأ بالاعتراض والتشكيك تبدأ اللعنة ويحل الغضب .

ثانياً : أن على المسلم أن يتقلى الأوامر والرسالة باستسلام ، وان يسلم وجهه طوعا لله ، ويرخي قيادة لمولاه .

ثالثا : فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث لم يتعنتوا كما تعنت بنو إسرائيل ،كما سبق .

رابعا : انه لا تعايش بين المسلمين ، وبين هؤلاء الأنجاس ، مهما كان الأمـــر ؛ لأننـــا نختلف عنهم في جميع أمورنا .

لا كما يزعم البعض من إمكانية التعايش السلمي معهم ؛ لأن الحية لا تلد إلا حية .

---

[33] أخرجه مسلم (1901) عن انس ، رضي الله عنه ، وانظر ((الإصابة)) (162/7).

فما دام أولئك أجدادهم ، فإن الأبناء سيكونون مثلهم ، أو شرا منـــهم في التعنـــت والخبث .

خامسا : من فوائد القصة ، كما ذكر الإمام احمد ، أن البقرة تذبح ولا تنحر .
وقد استشهد الإمام بهذه الآية {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} (البقرة: من الآية 67) و لم يقل : تنحروا .

وهذا من اللطائف .

سادسا : استدل بها الإمام مالك على جواز بيع (السلم) أي : البيع بالـــصفات دون حضور السلعة ؛ لأن الله ذكر لهم الصفات فقط ، فاستجابوا بالصفات فأقرهم الله .

سابعا : أن على المسلم أن لا يتعنت في أموره الدينية والدنيويـــة ،ولا يتـــشدد ؛ لأن التشدد مصيره الهلاك أو التعب في الحياة .

ثامنا : أن الله إذا أمر بأمر فهو على ظاهره ، ولا نبحث ونستفسر عن أشياء لم يردها الله ، فنصرفه عن ظاهره بسببها .

تاسعا : أن من نفذ الأمر في أول وقته فهو المأجور ، مثل الصلاة في أول وقتها .

قال ابن مسعود : يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟

قال : ((الصلاة على وقتها))[34].

وهكذا الحج في أول العمر أفضل ممن يؤخره إلى ما بعد المشيب .

---

[34] أخرجه البخاري (527، 5970) ، ومسلم (85).

إخوان

القردة والخنازير

قال الله ،سبحانه وتعالى : {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّـــهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} (البقرة:97)

قال انس ، رضي الله عنه : أتى عبد الله بن سلام اليهودي الذي اسلم آل رســـول الله صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة فقال : يا رسول الله إني أسألك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبي

قال : ((ما هي ؟)).

قال : ما هو أول اشراط الساعة ،وما هو أول طعام أهل الجنة ،ولماذا يشبه الولد أمه أو أباه .

فقال صلى الله عليه وسلم ، وهو يجيب على الأسئلة الثلاثة العويصة المشكلة ، التي لا تعلم إلا بوحي من فوق سبع سماوات .. قال : ((أخبرني بهن جبريل آنفا)).

قال ابن سلام : جبريل عدو اليهود من الملائكة .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((أما أول اشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب)).

((وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت)).

((وأما أن الابن يشبه أمه أو أباه ، فإذا سبق ماء الرجل أشبه أباه ، وإذا سبق ماء المرأة أشبه أمه)).

قال عبد الله : صدقت بابي و أمي، والله ما علمها إلا نبي ، اشهد أن لا إلـــه إلا الله ، واشهد أن محمدا رسول الله ، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت يبـــهتون (أي : أهـــل زور وافتراء) فاسألهم عني .

فجعله صلى الله عليه وسلم في مشربة (وهي الغرفة الصغيرة) ، وجمع أحبار اليهود وقال : ((كيف ابن سلام فيكم ؟)).

فقالوا : سيدنا وابن سيدنا ،فقيهنا وابن فقيهنا ، خيرنا وابن خيرنا .

قال : أفرأيتم إن اسلم .

قالوا : أعاذه الله من ذلك .

فرد عليهم ابن سلام ، وقال : اشهد أن لا إله إلا الله ، وان محمدا عبده ورسوله .

فانخنسوا ، وقالوا : شرنا وابن شرنا ، وسيئنا وابن سيئنا ، وخبيثنا وابن خبيثنا [35] .

ساق الإمام البخاري هذا الحديث على هذه الآية ؛ لأنه يريد أن يفسر كل آية تفسيرا صحيحا بسنده ؛ لأنه اشترط الصحة حتى في التفسير .

والشاهد في الحديث أن اليهود يعادون جبريل .

فلما قال صلى الله عليه وسلم : إن جبريل اخبرني بها آنفا ، قال ابن سلام : ذلك عدو اليهود من الملائكة.

ولماذا عادى اليهود ، عليهم اللعنة ، جبريل ، عليه السلام .

لثلاثة أسباب قالها أهل العلم .

الأول: انه نقل الرسالة منهم إلى غيرهم ، فظنوا أن عندهم صكا شرعيا على الرسالة لا تنزل إلا فيهم ، فغضبوا لذلك وعادوه .

الثاني : لأنه ينزل بالخسف والتدمير ، فالله ، عز وجل ، إذا أراد أن يدمر أمة أرسل إليهم جبريل ، وله ستمائة جناح ، ومن ذلك انه دمر قرى قوم لوط ، عليه السلام ، وكانت أربع قرى ، وفيها أربعمائة ألف ، وقيل : ثمانمائة ،فرفعها في الجو إلى السماء حتى سمع الملائكة نباح كلابهم وصياح ديكهم ، ثم أنزلها على وجهها في الأرض .

فهم يقولون : انه ليس مثل ميكائيل ، يأتي بالنبات والمطر والغيث في تؤدة وسكينة.

الثالث : انه فضح مفترياتهم واخبر بأباطيلهم ، واخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأسرارهم من تحريف للكتاب وقتل للأنبياء .

---

[35] أخرجه البخاري (4480)

والآن لنقرأ القرآن والحديث النبوي ، وهما يتحدثان عن بني إسرائيل ، و أول ســـورة في القرآن ذكر فيها هؤلاء الخبثاء هي سورة البقرة التي من قرأها ظن أنها عن بني إسرائيل .

ولا بد من معرفة صفات هؤلاء الأعداء الماكرين ؛ لأنه من أعظم الأشياء التي تبـــصر الملم والمؤمن بألاعيبهم الحديثة التي لا تتبدل عن القديمة ، وتكشف له عن المزيد من خططهم وكيدهم .

وهي تزيد المؤمن يقينا بالله ، سبحانه وتعالى ، وبهذا الدين .

قال تعالى {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} (الأنعام:55)

ولذلك من عرف الجاهلية ، أو مسالك المفسدين كان اشد تمسكا بهذا الدين القـــويم بخلاف من لم يعرف إلا الإسلام .

قال عمر ، رضي الله عنه : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشا في الإســـلام أناس ما عرفوا الجاهلية .

ولذلك كان الصحابة من اشد الناس إيمانا ؛ لأنهم عرفوا مسالك الجاهلية ومفاسدها .

وقبل أن نتعرف على صفات أحفاد القردة والخنازير ، لا بد أن نلـــم بـــسبب هـــذا الحديث السابق .

لقد هاجر صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، فأمست مكة في ثوب حزن وفي حداد من مفارقة الحبيب ، وبكى عليه الغار الذي صاحبه أيام الشباب .

فانطلق صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكانت في جاهلية جهلاء ، فلما قدم علها :

استفاقت على أذان جديـــــد *** ملؤ آذانهـــــا أذان بلال

فكان عبد الله بن سلام الحبر اليهودي من الذين أبصروه صلى الله عليه وسلم عند مجيئه ، وعبد الله بن سلام هذا هو الذي نزل في فيه قوله تعالى : {قُلْ أَرأيتمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّـــهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ } (الاحقاف: من الآية 10) .

فذهب عبد الله لما رأى الناس يجتمعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قـــال : فنظرت في وجهه فإذا هو ليس بوجه كذاب ؛ لأن وجه الكذاب يعرف بالنظر إليه ، وأمـــا الصادق فنظراته صادقة ولمحاته صادقة .

لو لم تكن فيه آيات مبينة *** لكان منظره ينبيك بالخبر

قال ابن سلام ، فسمعته يتكلم صلى الله عليه وسلم ، واسمع إلى الكلمات التي كأنها الدر أو الجواهر ، بل أغلى من الجواهر .

بالله لفظك هذا سال من عسل *** أم قد صببت على أفواهنا العسلا

أم المعاني اللواتي قد أتيت بهـــا *** أرى بها الدر والياقوت متصلا

لو ذاقها مدنف قامت حشاشته *** ولو رآها غريب داره لسلا

قال صلى الله عليه وسلم : ((أيها الناس أطعموا ، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام ،وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام))[36] ، فلما سمع عبد الله هذا الكلام آمن .

قال صلى الله عليه وسلم : ((لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي اليهود))[27] ، لكنهم لم يكملوا عشرة لأن الله كتب عليهم اللعنة .

* مكائد اليهود ومفاسدهم :

1- فمنها دخولهم مع الباب يزحفون بعد أن قال لهم الله عز وجل : {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ } (البقرة: من الآية 58) قال بعض المفسرين : هي بيت المقدس ، وقيل : بـــل أريحا .

فلما فتح الله على موسى ، عليه السلام ، تلك البلاد ، قال لهم : إن نعمة الله عليم يوم نصركم ، ويوم أنقذكم من فرعون الطاغي أن تدخلوا متواضعين سجدا من باب المدينـــة ، كما دخل صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، قيل في بعض الروايات : بان دموعـــه ســـالت تواضعا لله فرفعه الله ؛ لأن من يتواضع لله يرفع.

فقال لهم موسى ، عليه السلام : ادخلوا لله متواضعين لما نصركم وأنقذكم ، فأبوا ..

---

(36) صحيح . أخرجه الترمذي (3485) وقال : هذا حديث صحيح ، وابن ماجه (3251،1334) ،والدارمي (1460) عن عبد الله بن سلام ، رضي الله عنه .

(27) أخرجه البخاري (3941) ، ومسلم (2793).

وقال الله ، عز وجل ، لهم : {وَقُولُوا حِطَّةٌ} أي : يا ربي احطط عنا ذنوبنا، كقولك: (غفرانك)

فقال لهم موسى : قولوا: حطة ،وهي كلمة خفيفة.

فدخلوا يزحفون ويقولون : حنطة في شعيرة ! {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ } (البقرة: من الآية 59) .

لما بدلوا هذا الكلام غضب الله عليهم ، سبحانه وتعالى ، من فوق سبع سماوات ، وأخزاهم وأذلهم .

2- ومن جرائمهم وكيدهم : أنهم قتلوا في غداة واحدة عشرات من الأنبياء ؛ لأنه كان يبعث لهم جملة من الأنبياء في زمن واحد .

وأتوا بيحيى ، عليه السلام ، فذبحوه وقطعوا رأسه ،عليه السلام ،وألقوه في حضن أبيه زكريا ، فانتفض زكريا ، عليه السلام ، فطاردوه بالسيف ، وفي ((التفسير)): انه هرب منهم ، واختفى في شجرة في وسطها معجزة من الله .

فلما علموا انه في الشجرة شقوها نصفين ، وشقوا معها زكريا ،عليه السلام.

فكانوا يقتلون الأنبياء ، لذلك قال الله ، س ، لهم : {قَتْلَهُمُ الْأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ } (آل عمران: من الآية 181)، ولكن هل هناك قتل للأنبياء بحق ما دام قد قال سبحانه وتعالى : {قَتْلَهُمُ الْأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ} !

لا ، ولكن هذا من ظلمهم وعتوهم فهو سبحانه يقول لهم : ليس عندكم جزء ، ولو صغير من الحق لتقتلوهم .

3- ومنها : قتلهم النفس في قصة البقرة، فقد كان هناك أخوة لهم عم غني ، فأتوا إلى عمهم فذبحوه ، وأخذوا تركته ، وخافوا أن يكتشف نبي عصرهم الجريمة، فتباكوا على عمهم بأنه قتل ولا يدرى من قتله ، فأوحى الله للنبي أن يأمرهم بذبح بقرة،ويأخذوا شيئا من أطرافها ويضربوا به على الميت فإنه سوف يتكلم ويخبرهم بمن قتله .

4- ومنها: قصة القرية حاضرة البحر ، وهي قصة محزنة،عندما قال الله لبني إسرائيل : {لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ} (النساء: من الآية 154) يعني : لا تصيدوا السمك يوم السبت ، اصطادوا

في كل الأيام ، لكن يوم السبت لا تصطادوا الحوت والسمك ، فقالوا : سمعنا وعصينا ، وهم دائما يقولون سمعنا وعصينا .

فقالوا : يا أيها الناس ، نخاف أن الله يخسف بنا ، إن عصيناه ، فلا تصطادوا السمك يوم السبت .

فابتلاهم الله بان كان يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا يأتيهم فيه أي سمكة ،أما في السبت فتكثر الأسماك وتأتي شرعا ، ففكروا طويلا في الأمر ،حتى هداهم مكرهم إلى حيلة على الله ، سبحانه وتعالى ، بزعمهم الفاسد.

فقالوا : الله ، عز وجل ، نهانا عن الصيد مباشرة يوم السبت ، لكن لو حفرنا أخاديد حتى تقع فيها الأسماك فلا تذهب ، فنأتي يوم الأحد ونصيدها لكان أولى لنا .

فحفروا الأخاديد ومجاري المياه ، فأخذت الأسماك تدخل ، وهم يسدون عليها طريق البحر .

ويأتون يوم الأحد فيأخذونها.

فقال لهم الصالحون منهم : يا أيها الناس ، قد ألحدتم في دين الله ، وعصيتم الله ، وتجاوزتم حد الله ، فلم يسمعوا منهم ، واستمروا في غيهم .

فكان هؤلاء الصالحون هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهم حفاظ المجتمع وعباد الله ، وأما أولئك فهم أهل الفساد في المجتمع .

ولكن قد ظهر فريق ثالث معهم ، هم : أهل السلبية ؛ الذين لم ينكروا و لم يفعلوا ، وإنما نصحوا أهل الإنكار بان يتركوا إنكارهم ،فقالوا { لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّـهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً} (لأعراف: من الآية 164) أتركوهم .. دعوهم ،الله يحاسبهم ، فلستم المسؤولين عنهم .

فرد عليهم أهل الأمر والنهي قائلين : إنما نفعل هذا {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (لأعراف: من الآية 164) .

وهذا واجب الداعية أن يأمر وينهى لأمرين :

الأمر الأول : أن يعذر عند الله بان بلغ النصيحة والرسالة .

والأمر الثاني : لعل العصاة أن يتقوا الله ، عز وجل ، ويعودوا عن معاصيهم .

وفي الصباح الباكر سمع الصالحون صياحا مثل صياح القردة والخنازير ، فأشرفوا على السور ، فإذا بالمفسدين قد انقلبوا إلى قردة وخنازير ! سبحانك ربي .

وفي بعض الروايات من ((التفسير)): أنهم كانوا يعرفون بعضهم من مناظرهم .

والسؤال عند أهل العلم : هل القردة التي نراها الآن هي من نسل إخوان القردة التي نراها الآن فهي من نسل آخر وخلق آخر .

وقد ورد في الحديث ((إن الله إذا مسخ شيئا لم يجعل له نسلا ولا عقبا))[38].

وقد ورد في الحديث : ((إن الله إذا مسخ شيئا لم يجعل له نسلا ولا عقبا)).

5- ومن كيدهم وإفسادهم انهم قالوا لموسى : {فَاذْهَبْ أنت وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} (المائدة: من الآية 24) فنحن لا نريد الحرب والقتل ، فدعا عليهم ، عليه السلام ،بان يتيهوا في الأرض .

فتاهوا أربعين سنة ، يأتون إلى طرف سيناء يريدون أن يخرجوا ، فيقولون : أخطأنا الطريق فيعودون ،فإذا وصلوا إلى الناحية الأخرى من جديد.

أتدرون ماذا فعل الله بهم ؟

لقد تكفل الله بهم ، وأنعم عليهم نعمة ما أنعمها على أحد من الناس ، فقد فجر لهم من صخرة مربعة اثنتي عشر عينا ؛ لأنهم كانوا اثني عشر سبطا (أي : قبيلة).

فقالوا : أين الطعام يا موسى ؟ هذا ماء بارد يا موسى ، لكن أين الطعام ؟

قال : ماذا تريدون ؟

قالوا : نريد أحسن طعام .

قال : المن والسلوى، فأعطاهم الله المن والسلوى.

فقالوا : هذا الماء وهذا الطعام لكن أين الظل ؟ فظلل الله عليهم الغمام، فكان الغمام يسير معهم أفواجا.

فقالوا : ادع لنا ربك يخرج من نبات الأرض ، لقد مللنا المن والسلوى .

---

[38] أخرجه مسلم (2663) عن أم حبيبة ، رضي الله عنها.

فقال موسى : {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} (البقرة: من الآية 61) ، فهم أمة لم تعتد على الخير والمعروف ، وإنما تربت على الفساد والتعنت . فطلب منهم أن يهبطوا مصرا فإن لهم ما سألوه .

6- ومنها : أنهم آذوا موسى واتهموه بما برأه الله منه ، فقالوا : هو مصاب بمرض في موضع عورته ؛ لأنه لا يتكشف أمامنا ، فموسى كان حييا ستيرا ، لا يتكشف إذا أراد الغسل ، فظن هؤلاء الخبثاء انه مريض أو به إذ في موضع من جسمه .

ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إن موسى عليه السلام اخذ عليه إزارا ، فلما نزل يغتسل وضعه على حجر ، ففر الحجر بالثوب ، فخرج على أثره ، فأتى الحجر جهة بني إسرائيل ، فأقبل موسى فعلموا انه ليس به داء . فقال موسى : ثوب يا حجر وأخذ يضرب الحجر))[39] .

7- ومن مفاسدهم ومكايدهم : أنهم كانوا يقيمون الحد على الضعيف ويعطلونه عن الشريف .

قال صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يشفع لمن استحق حدا من حدود الله : ((إنما هلك الذين من قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها))[40]. وحاشاها أن تسرق .

أما هؤلاء فكانوا مثلا إذا زنى فيهم الرجل وكان شريفا أخذوه وحمموه بالفحم وطافوا به ، أما إذا كان الزاني ضعيفا فأنهم يقيمون عليه الحد فيرجمونه حتى يموت .

8- ومن مفاسدهم وكيدهم: عبادتهم العجل .

قال يهودي لأمير المؤمنين علي بنابي طالب مستهزئا : كيف تطلبون من رسولكم أن يجعل لكم شجرة ذات أنواط كالمشركين؟

---

[39] أخرجه البخاري (278،3404،4799) ، ومسلم (339) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

[40] أخرجه البخاري (3475) ، ومسلم (1688) عن عائشة ، رضي الله عنها .

فقال علي ، رضي الله عنه : وأنتم ما خرجتم من البحر إلا وقلتم لموسى : {اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } (لأعراف: من الآية 138) !

الشاهد : أنهم عبدوا العجل بتخطيط ومكر من زعيمهم السامري ؛ الذي كان مرافقا لموسى ،عليه السلام .

وفي هذا حكمة نستفيدها بأنه ليس من شروط الصلاح أن ينشأ المرء في بيت صالح ، فهذا السامري نشأ على الوحي مع موسى يسمعه صباحا ومساء ، فكأن جبريل قد رباه ، ولكنه في نهاية الأمر يصبح من المشركين الملحدين الذين يصدون عن سبيل الله .

فلا تدهش إذا رأيت أكبر المفسدين يخرج من بيت أحد المصلحين ، ولا يغيب عن بالك قصة نوح مع ابنه .

وهكذا العك ، فقد ينشأ الصالح في بيت فاسد ، كموسى ، عليه السلام ، الذي تربى عند فرعون في قصره ، فكان أحد رسل الله .

الشاهد : أن السامري خرج مع بني إسرائيل ، وصنع لهم من حلى الذهب الذي أخذوه من الفراعنة عجلا ذهبيا يخور بسبب الريح ، ويخرج أصواتا توهم السذج بأنه يتكلم . فعبدوه من دون الله .

فلما عاد موسى من مخاطبة ربه تعالى ، غضب عليهم لما رآهم يسجدون لهذا العجل الذي لا ينفع ولا يضر .

كيف هذا ؟ وهو قد تعب في تعليمهم وتوضيح الحق لهم وتربيتهم .

فسبحان الله ! هذه هي النهاية مع هؤلاء القوم الفسدة .

وفي هذا حكمة لنا : بان لا نيأس إذا رأينا الناس بعد تعبنا في الدعوة وإلقائنا المحاضرات والدروس تلو الدروس ، ثم وجدناها لم يستفيدوا شيئا مما قلنا ، لا نيأس ؛ لأن علينا البلاغ ، والهداية منه سبحانه وتعالى .

فنصحهم موسى وغضب على أخيه هارون الذي تركهم يعبدون العجل ، ولم يواجه السامري بحزم.

فأخبرهم ، عليه السلام ،بان توبتهم أن يقتلوا انفهم ، بان يظلهم الله بالغمام حتى لا يرى بعضهم بعضا فيتقاتلوا ، ففعلوا ذلك ، وتقاتلوا في الظلام ، حتى قتل بعضهم بعضا جزاء لعبادتهم العجل ،فتاب الله عليهم .

9- ومنها : انهم كانوا يذيبون الشحم ويبيعونه وهو محرم عليهم ، قال صلى الله عليه وسلم : ((قاتل الله اليهود ، لما حرم الله عليهم الشحوم أذابوها فجملوها فباعوها))[41] ، لأن الشحوم محرمة عليهم .

10- ومنها : أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ،وهذا ما نخشى الوقوع فيه . قال صلى الله عليه وسلم : ((إنما اهلك الذين من قبلكم أن الرجل كان يلقي الرجل فيقول : يا عبد الله، اتق الله ولا تفعل كذا، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه من آخر النهار))[42].

أي : أنهم داهنوا أهل المعاصي ، وانساقوا معهم ، فلم ينكروا عليهم ، أو أنكروا إنكارا لطيفا جدا لم يصل إلى درجة الموالاة والمعاداة التي أمر الله بها .

قال الله : {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} (المائدة:78){كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (المائدة:79) .

فمن رأى المنكر ، ولم ينه ، ولو بقلبه فهو كبني إسرائيل .

وقد ورد أن الله أمر جبريل أن يزلزل قرية عن مكانها فقال : يا رب فيها رجل صالح يعبدك ويكبر ويسبح .

فقال سبحانه وتعالى : فيه فأبدا ، فإنه لم يتمعر وجهه من اجلي[43].

11- ومنها : أنهم لم يستفيدوا من علمهم ، يقول عز من قائل : {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً} (الجمعة: من الآية 5) فالحمار تأتي به ، وتركب عليه المجلدات العلمية الثمينة ، ((كفتح الباري)) و ((المغني)) و ((رياض الصالحين)) ، فهو لن يدري بما فيها ، ولن

---

[41] أخرجه البخاري (4633)، ومسلم (1581) عن جابر ، رضي الله عنه .

[42] صحيح . اخرجه أبو داود (4336) ، والترمذي (3047) ، وصححه ، وابن ماجه (4006) عن ابن مسعود ، رضي الله عنه.

[43] انظر : ((تفسير القرطبي) (237/6).

يستفيد أي فائدة منها . فهو كبني إسرائيل حفظوا التوراة ، لكن ما نفذوا أحكامها {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} (المائدة: من الآية 13).

وهذا تنبيه لهذه الأمة الإسلامية أن لا تكون كبني إسرائيل ، تعلم ولا تعمل ، بل لا بد من العمل مع العلم ، وإلا فما فائدة العلم ؟

وأنا أعجب من أناس حازوا على الشهادات العالية في الشريعة، ولكنهم لم يترلوا إلى ساحة الميدان بعد ، ولا زالوا يحبسون علمهم عن كثير من الناس الجهلة ؛ الذين يحتاجون لعلمهم في البوادي والقرى ، وهذا من تثبيط الشيطان لهم ، عافاني الله وإياكم .

12- ومنها : أنهم قالوا{ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُه} (المائدة: من الآية 18) .

وهذا كذب وزور ، فالله ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب أو صلة، إنما هو الأمر والنهي .

فرد الله عليهم قائلا سبحانه : {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ} (المائدة: من الآية 18).

13- ومنها : أنهم قالوا : بان الله فقير ونحن أغنياء ، وكذبوا أخزاهم الله ، بل الله أكرم الكرماء و أغنى الأغنياء .

قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا} (آل عمران: من الآية 181) .

14- ومنها : أنهم قالوا : بان يد الله مغلولة ،{ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} (المائدة: من الآية 64)

فليس هناك أكرم منه ،سبحانه ، ولكنه الخبث والنفوس الوقحة حتى مع مولاها تبارك وتعالى .

15- ومنها : أنهم قالوا : { لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ} (البقرة: من الآية 113) وهم أيضا ليسوا على شيء ،بل كلاهما محرف مبدل ، فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون كما قال تعالى : { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} (الفاتحة: من الآية 7).

16- ومنها : أنهم قالوا : {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} (التوبة: من الآية 30) وافتروا عليه ، سبحانه وتعالى ، فهو { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} (الإخلاص : 3) .

17- ومنها : أنهم قالوا : {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى } (البقرة: من الآية 111)، فقال تعالى ردا عليهم : { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } (البقرة: من الآية 111).

أي : أنها أماني خيالية، لا حقيقة لها في الواقع ، إلا لمن آمن برسوله صلى الله عليه وسلم .

18- ومنها : أنهم قالوا : { قُلُوبُنَا غُلْف} (البقرة: من الآية 88) أي : لا نحتاج إلى علمك يا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى :{ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً} (النساء: من الآية 155).

19- ومنها : أنهم قالوا : { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أياماً مَعْدُودَة} (البقرة: من الآية 80) فرد تعالى عليهم قائلا سبحانه : {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} (البقرة: من الآية 80).

فهم كاذبون في زعمهم هذا ، بل يدخلون النار ، ويعتق الله كل مسلم بواحد من هؤلاء الأنجاس .

نسأل الله العتق من النار .

وهناك صفات أخرى ومكايد ومخازي يعلمها من تدبر كتاب الله الذي فضحهم ، لاسيما سورة البقرة .

والله اعلم ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

* *